بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وصلى الله تبارك وتعالى على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

الحديث الأول

عن أنس بن مالك- رضي الله تعالى عنه- أن النبي- صلى الله عليه وعلى آله وسلم- قال: «ثلاث من كنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله تعالى ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله تعالى، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يُقذف في النار» [رواه البخاري ومسلم وابن ماجه وأحمد وأبو داود].

الإيمان لغة: التصديق، واصطلاحًا: فسَّره النبي- صلى الله عليه وعلى آله وسلم- بقوله: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره، حلوه ومرّه» [رواه البخاري ومسلم].

وقد ذكر النبي- صلى الله عليه وعلى آله وسلم- حلاوة الإيمان، وجعل لها ثلاثة أسباب:

الأول: «أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما»، ولهذه الجملة معنيان:

الأول: حصول الإيمان بالتصديق بالله- تعالى- وبرسوله- صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

الثاني: حلاوة الإيمان بحب الله- تعالى- وحب رسوله- صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

وقد أجاد حجة الإسلام الشيخ الغزالي- رحمه الله- وأفاد في كتابه الإحياء في الجزء الرابع، في باب: محبة الله- عز وجل- ومن كلامه:

«للمحبة أسباب، وهي النعم، ولا نجد لأحد نعمًا كما لله تعالى، فيجب علينا أن نحبه أكثر من كل شيء» أهـ.

قلت:

في الحديث: «أحبوا الله- تعالى- لما يغذوكم به من نعمه» [رواه الترمذي].

ومن أكبر العلامات الدالة على محبة العبد لربه: الطاعة، قال الشاعر الصوفي:

تعصى الإله وأنت تظهر حبه هذا لعمري في القياس بديعُ

لو كان حبك صادقًا لأطعته إن الحب لمن يحب مطيعُ

وقال الآخر:

جمالك في عيني وذكرك في فمي وحبك في قلبي فأين تغيبُ

وحب الله- تعالى- لعبده أفضل من حب العبد لربه، كما أن ذكر الله- تعالى- لعبده أفضل من ذكر العبد لربه...

أما سبب حب الله- تعالى- للعبد فهو اتباع عبده لنبيه- صلى الله عليه وعلى آله وسلم- قال تعالى: (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ) (آل عمران: من الآية 31).

وأما سبب ذكر الله- تعالى- لعبده فهو ذكر عبده له، قال- تعالى-: (فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ) (البقرة: من الآية152) وقال- سبحانه-: (وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ) (العنكبوت: من الآية45).

قال بعضهم: المعنى: ذكر الله لعبده أكبر من ذكر عبده له. أهـ.

وبيان ذلك: أن العبد يذكر ربه وهو مفتقر إليه، والله- تعالى- يذكر عبده وهو غنيّ عنه.

ومعنى ذكر العبد لربه أن يقول: لا إله إلا الله، سبحان الله... ... وهكذا.

ومعنى ذكر الله لعبده أن يغفر له ويرحمه، وأن ينظر إليه بعين العناية واللطف، فإن كان فقيرًا أغناه، وإن كان مغلوبًا نصره، وإن كان مريضًا شفاه، إن كان بعيدًا قرّبه، ومن وراء ذلك ما يكلّ عنه اللسان من الأسرار والأنوار للذاكرين الله كثيرًا والذاكرات، جعلنا الله تعالى منهم. آمين...

والمحبة لا تنقص حبة، وإن قُطع صاحبها في معارك الحياة أو جرح... والصحابة- رضي الله تعالى عنهم- كانوا لا يزدادون بما يحصل لهم من الجراحات إلا إيمانًا وتسليمًا، قال الله تعالى في كتابه العزيز: (إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لا يَرْجُونَ) (النساء: من

الآية104).
فأثبت لهم الرجاء العظيم مع الألم.
وفي الفتوحات المكية ج359/2: «قالت المُحِبة: لو قطعتني إربًا إربًا لم أزدد فيك إلا حبًا» أهـ.
يعني: أنه لا ينقص حبنا لذلك، وهو قول المرأة المحبة، يقال عن هذا قول رابعة العدوية المشهورة، التي أربت على الرجال حالاً ومقامًا، وقد فصَّلت وقسَّمت- رضي الله تعالى عنها- وهو أعجب الطرق في الترجمة عن الحب:
أحبك حبيْن: حب الهــوى وحبًّا لأنك أهل لذاكــا
فأما الذي هو حــب الهـوى فشغلي بذكرك عمن سواكا
وأما الذي أنت أهــل لــه فكشفك للحجب حتى أراكا
فلا الحمد في ذا ولا ذاك لـي ولكن لك الحمد في ذا وذاكا
وفي هذا أيضًا تقول جارية عتّاب الكاتب:
يا حبيب القلوب من لي سواكـا ارحم اليوم زائرًا قد أتاكـا
أنت سؤلي وبغيتي وسروري قد أبى القلب أن يحبَّ سواكا
يا منائي وسيدي واعتمــادي طال شوقي متى يكون لقاكـا
ليس سؤلي من الجنـان نعيمًا غير أن أريـدها لأراكــا
وف هذا المقام يقول محب آخر:
نعيمك أو عبك لـي ســواء فحـبك لا يحـول ولا يزيــد
فحبّي في الذي تختـار مـني وحبك مثـل خلقك لي جــديد
وجاء في الفتوحات المكِّية ج3 ص358:
«حكي أن خطَّافًا راود خطّافة يحبها في قبة لسليمان- على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام- وكان سليمان- عليه السلام- في القبة- وهو يقول لها: لقد بلغ بي حبُّك أن لو قلتِ لي: اهدم هذه القبة على سليمان لفعلت، فاستدعاه سليمان- عليه السلام- وقال له: ما هذا الذي سمعت منك؟ فقال: يا سليمان: لا تعجل عليّ- إن للمحب لسانًا لا يتكلم به إلا المحبُّون، وأنا أحب هذه الأنثى، فقلت ما سمعت، والعشاق ما عليهم من سبيل، فإنهم يتكلمون بلسان المحبة لا بلسان العلم والعقل. فضحك سيدنا سليمان- عليه السلام- ورحمه، ولم يعاقبه» أهـ.
وفي الفتوحات المكية للشيخ الأكبر ابن عربي- رضي الله تعالى عنه:
«ومما حفظته عن مشايخي للسيدة رابعة العدوية:
كلهم يعبدوك من خـوف نــارٍ ويرون النجاة حظًا جـزيلاً
أو بأن يسكنـوا الجنان فيحظــوا بنعيم ويشربوا سلســبيلا
ليس لي في الجنـان والنار حظ أنا لا أبتغي بحِبي بديــلا
قد تخللت موضع القلب مــني ولذا سمـي الخليل خليــلا
وكلام الشيخ محيي الدين- رضي الله تعالى عنه- يترجم عن أحوال المحبين، وصفة الحب كالذوق في اللسان، فيذوق به حلاوة العسل الحلال المملوك لآكله، وحلاوة العسل المغصوب، فمن وجّه حبَّه لى محرم فهو محب، ومن وجه حبه إلى حلال فهو محبّ، وأعلى درجات الحب ما كان لله ورسوله- صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم- وهو بغية السادة الصوفية، رضوان الله تبارك وتعالى عليهم أجمعين:
يقول سلطان العاشقين سيدي عمر بن العارض- رضي الله تعالى عنه-:
أحبة قلبي والمحبة شافعـي لديكم إذا شئتم بها اتصـل الحـبلُ
ويقول أيضًا:
وإن ذكِرتْ في الحيّ أصبح أهله نشاوى ولا عارٌ عليهم ولا إثــمُ

ويقول أيضًا:
وإن خطرتْ يومًا على خاطر امرئٍ أحلت به الأفراح وارتحل الهـمُّ
لأن هؤلاء لا همّ عندهم ولا غمّ ولا حزن في حضرة الحب والمشاهدة، قال- تعالى-: (فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ) (يونس: من الآية58).
ففرحهم بالله أنساهم ما سواه، وتلذذهم بذكره زهَّدهم في كل لذة فانية، أو زينة خالية، أو ظل زائل، يقول ابن الفارض- رحمه الله-:
أشـاهد معـنى حسـنكم فيلذُّلـي خضوعي لديكم في الهوى وتذلّلي
فهم يتلذذون بالخضوع والتواضع والانكسار والزهد والعزلة والشوق والتذكار والوجد والبكاء، والسماع للقرآن والمدائح النبوية، وزيارة المشاهد الطيبة، كالكعبة، ومقام سيدنا إبراهيم- عليه السلام- وعرفات، والمشعر الحرام، ومنى، وزيارة المصطفى- صلى الله عليه وعلى آله وسلم، والصلاة في الروضة الشريفة، وكل ما يقدح زناد الشوق، ويبعث تذكارًا شيقًا للروح لأنها مُحِبة لله تعالى بفطرتها، غير أن هذا الحب يحتاج إلى قدح كالزناد، لكنه يحتاج إلى استعداد عظيم وجهاد كبير، ويقال لغير المحب الصادق ما قاله ابن الفارض- رحمه الله تعالى-:
أتيت بيوتًا لم تُنلْ من ظهورهـا وأبوابها عن قرع مثـلك سُدَّتِ
ويقول سيدي عبد الرحيم البرعي- رحمه الله تعالى-:
خلّ الغرام لصبٍّ دمعُه دمُــه حيران توجده الذكـرى وتعدمـهُ
ما الحب إلا لقوم يعرفون بـه قد مارسوا الحبّ حتى هان معظمهُ
ويقول أيضًا:
أنسمة طيب أم صبا طَيبة هبَّـا فأنعش قلبي للحبيب وقـد لبَّــى
وهيهات ما كل النسيم حجـازيًا ولا كل نور يملأ الشرق والغـربا
ويقول الإمام البوصيري- رحمه الله تعالى-:
أمنْ تذكر جـيران بذي سَلَم مزجْت دمعًا جرى من مقلة بـدمِ
وهكذا أهل الحب لهم في حبهم جواهر المعاني ودُرَر البيان، وعبارات تعبر عن حبهم وشوقهم وحالهم ما بين ناظم وناثر...

الحديث الثاني

عن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله- ﷺ: «إن الله- تعالى- قال: من عادى لي وليًا فقد آذنته بالحرب، وما تقرَّب غليّ عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرَّب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن: يكره الموت وأنا أكره مساءته» [رواه البخاري].
اعلم يا عبد الله أن الحق سبحانه يستحيل عليه أن يكون منفصلاً عن شيء أو أن يكون شيء منفصلاً عنه، أو يتصل بشيء أو يتصل به شيء، ولا يدنو من شيء دُنُوَّ حسٍّ، بل تنزه سبحانه عن جميع صفات الحوادث.

إذا علمت ذلك فاعلم أن ما كان متشابهًا من الآيات والأحاديث النبوية فللعلماء فيه رأيان:
السلف يؤمنون به مع صرف ظاهره عما لا يليق بالحق سبحانه وتعالى.
والخلف يؤولون، قال سيدي إبراهيم اللقاني صاحب الجوهرة رضي الله عنه:
وكل نص أوهم التشبيهـا أوّله أو فوّض و رُم تنزيهـا
وهذا الحديث من قبيل المتشابه.
ومعنى (كنت سمعه) يعني يسمع عن الله لا عن الغير؛ لأن الغير عنه غاب.
ومعنى (كنت بصره الذي يبصر به) يبصر فعل الله مكسوًا ببديع صنعته وباهر حكمته يذكره الليل إذا أظلم ما أغفله الغافلون، والصبح إذا تنفس ما يلهو به اللاهون، وتذكره الأرض إذا كسيت بكسائها الخضر خضرة الجنة، وتذكره الثمار باختلاف ألوانها غاية المنة، ويذكره اهتزاز الأشجار إذا هبت الرياح، اهتزاز الأرواح للقاء الحق سبحانه بالعشي والصباح، ويذكره اختلاف الألوان باختلاف الأرض في طبقاتها، وتذكره فصول الزمان اختلاف الكواكب في دورانها، ولا يرى شيئًا إلا ويرى الله قبله، ولا يرى لمخلوق فعلاً، غريقًا في بحر (هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ) (فاطر: من الآية3) مستبشرًا ببشرى (اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ) (الزمر: من الآية 62) مفكرًا في التفصيل والبيان في محكم القرآن (وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ) (الصافات:96).
ولما كان ظاهر هذا الحديث يستحيل عليه تعالى أوّلته، وقلت فيه بفضل ربي تعالى:
«كنت سمعه... الخ» أي كان حبي في سمعه وبصره وجميع جوارحه؛ لن الحب القلبي إذا سرى إلى جميع الجوارح، وزيادته تكون بسبب حب الله تعالى لعبده الذي يجعل الحب الإلهي ساريًا في جميع أجزائه، فالمدار على حب الله تعالى لك، لا على حبك له، وبحبك له عبدته، وبعبادتك له أحبك، فلا تنس الحب وأسبابه، واجعل نوافلك مدامك حتى تبصر مرامك، قال ابن الفارض رضي الله عنه:

ونفلي مدامي والحبيب منادمي

وهكذا توارد الأحوال عند تزاحكم مقامات الرجال، فلا تهملن جوادك عند السباق، ولا يعوقنك عن نهوضك عائق سباق.

الحديث الثالث

عن ابن عباس- رضي الله عنهما- أن النبي- ﷺ- قال:
«أولياء الله الذين إذا رءُوا ذكر الله» [أخرجه السيد أحمد بن إدريس في روح السنة، وذكره السيوطي في الجامع الصغير وذكر أنه رواية الحكيم عن ابن عباس.]
(إذا رءوا ذكر الله) لأن فطرة الإنسان إذا رأى وليًا من أولياء الله تعالى ذكّره الله تعالى بحاله أو بمقاله؛ لأن الروح تعرف أولياء الله تعالى سواء كانوا أحياء أو أمواتًا، ولها شعور عند ملاقاة أرواحهم في عالم الدنيا أو في عالم البرزخ، وربما تكون المعرفة من الجانبين إن كانا وليين.
(إذا رءوا ذكر الله) وذلك لتعلق أرواحهم بالله تعالى وقربهم، فكان مثلهم كحامل المسك إذا دنوت منه شممت رائحة طيبة ذكرتك بصاحب الرائحة الزكية- ﷺ، ولذلك حينما تشم تقول: اللهم صل على سيدنا محمد.
كذلك الأوياء يذكرونك الله تعالى بما لديهم من جواذب جذبتهم، وروائح روحتهم، وعرفان عرفهم، وقرب عزهم، ونور سطع منهم، وسر سرى إليها، وفيض فاض عليهم من معدن الفيوضات، وكلام تسمعه كالمدام، تارة تراهم صفوفًا على الأقدام، وتارة تراهم يقظة وتارة تراهم في المنام، قطعوا عالم الحس فانزوى أمامهم الحس، ومُزقت لهم العوائد، فإن زرتهم على أي حال قبل أو بعد نلت غالي الموائد، أنفاسهم عطرية، ونظراتهم روحانية، وأحوالهم محمدية، جليسهم لا يشقى، ومريدهم بهم يرقى.

الحديث الرابع

عن أبي الحسنين أمير المؤمنين سيدنا علي- رضي الله عنه وكرم الله وجهه- قال: قال رسول الله- ﷺ- قال الله تعالى: «إني أنا الله لا إله إلا أنا، من أقرّ لي بالتوحيد دخل حصني، ومن دخل حصني أمِنَ من عذابي» [رواه الشيرازي، ونقله الحافظ السيوطي في الجامع الصغير].
وفي مسلسل السمبلي المدني عن جعفر الصادق عن محمد الباقر عن علي زين العابدين عن الحسين بن علي عن عليّ بن أبي طالب- رضي الله عنهم أجمعين- عن النبي- صلى الله عليه وعلى آله وسلم- قال: «حدثني جبريل عليه السلام قال: يقول الله تعالى: لا إله إلا الله حصني، ومن قالها دخل حصني، ومن دخل حصني أمِنَ من عذابي».
أقول بفضل الله تعالى وتوفيقه وإلهامه قول المتبرئ من حوله وقوته إلى حول الله وقوته فإنه لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم: يؤخذ من هذا الحديث أشياء:
الأول: أن من قالها [أي: كلمة التوحيد] بلسانه وقلبه دخل حصن الله، أي حفظه وكلاءته سبحانه وتعالى.

الثاني: أن قائلها يأمن عذاب الله تعالى في الدنيا والآخرة إلا بحق الإسلام، فإن قتل قُتل، وإن زنى إن كان محصنًا رُجم، وإن كان بكرًا جُلد مائة جلدة وغُرِّب سنة، وإذا سرق قُطعت يده، وإذا شرب الخمر جلد ثمانين جلدة، وإذا قذف إنسانًا جلد ثمانين جلدة بأن قال إن فلانًا كذا ووصفه بوصف لا يليق كأنه وصفه بالزنا ولم يأت بأربعة شهداء فيجلد ثمانين جلدة حد القذف فإن لم يأخذ هذه العقوبات في الدنيا أخذها يوم القيامة ما لم يتب توبة نصوحًا- لن التوبة تكفر كل شيء حتى القتل- أو يحج؛ لأن الحج يكفر جميع الخطايا والذنوب إلا حقوق الناس إذا رجع من الحج وجب عليه أن يردها إلى أصحابها، وأما ما عليه من فرائض كصلوات وصيام وزكاة يجب عليه قضاء هذا كله.
والقائل بأن الفرائض المتروكة عمدًا لا تُقضى قول مخالف للمذاهب الأربعة، ففي موطأ الإمام مالك- رضي الله عنه- قال عليه الصلاة والسلام: «من نسي صلاة فليصلها متى ذكرها ثم تلا قوله تعالى: وأقم الصلاة لذكري» [أخرجه البخاري وغيره].
قال العلماء: إذا كان الناس مأمورًا بالقضاء فمن باب أولى العامد، وعند المالكية رضي الله عنهم: من عليه صلوات كثيرة يجب عليه قضاؤها، وأقل ما يؤديه كل يوم خمسة أوقات، فإذا قضى أقل من خمسة أوقات كان آثمًا.
الشيء الثالث: أن الذي يذكر (لا إله إلا الله) يلزم أن يلاحظ معنى الحديث (أمن من عذاب) ويحدث نفسه بالأمان الأمن ما دام يذكر.
الشيء الرابع: أنه يلزم من الأمن من العذاب البُعد عن أسبابه وهي المعاصي، والتوفيق إلى موانعه وهي الطاعات، فليبشر ذاكرها بالبُعد عن المخالفات وبالتوفيق إلى الطاعات، ولذلك كان ذكرها ينقل النفس من أمّارة إلى لوّامة.

الحديث الخامس

عن أبي هريرة- رضي الله عنه- أن رسول الله- ﷺ- قال: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله، ورجل قلبه معلق بالمساجد، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل دعته امرأة ذات حسن وجمال فقال إني أخاف الله، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه» [رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وأحمد].

(الإمام العادل) هو الحاكم الذي قام بحقوق الخالق والخلق حق القيام، وحاسب نفسه قبل أن يُحاسب أمام الملك العلام، ورفع راية العدل وقمع راية الظلم والظلام، فكان في الدنيا جندًا لله وفي الآخرة في جنات النعيم.

(والشاب الذي نشأ في عبادة ربه) يتغلب على شهوته إلى عبادة ربه، ويباهي الله تعالى به الملائكة الكرام، يقول: انظروا يا ملائكتي كيف خالف عبدي هواه وشهوته وفرّ إليَّ من الحرام؟ وإذا كبر سنة كتب الله له ثواب ما كان يفعله شابًا قبل كبر سنه والعجز عن القيام.

(والرجل الذي قلبه معلق بالمساجد) هو الذي يصلي الصلوات الخمس في جماعة، ولو شكى جسمه أتعابه وأوجاعه، يأتي إلى المسجد مهرولاً تاركًا أشغاله ومتاعه، فهنيئًا له يفوز بعد تعبه وجهده بالنعم المقيم.

(والرجلان اللذان تحابا في الله) بقلب سليم وإخلاص، وتوقير واحترام، كلاهما يساعد صاحبه على أمر دينه من غير غش ولا انفصام، كلاهما يفرح لفرح صاحبه ويحزن لحزنه، ويقدمه على نفسه عند الشدائد والآلام، ولا يترك صاحبه عند الشدائد ويقف متهكمًا عليه كفعل المخادع، والمحبة في الله هي أن ترى إنسانًا يعمل عمل المحب لله وأنت من أجل هذا العمل تحبه فبذلك تسمّى محبًا في الله.

(ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال) إلى نفسها ليزني بها، فذكر الرجل النار وعذابها.

(فقال: إني أخاف الله) وحرّم على نفسه اقترابها،وسجن نفسه الأمّارة بالسوء وقفل عليها بابها، فليبشر بسلامة نفسه في الدنيا من البلاء، وفي الآخرة من عذاب الجحيم.

(ورجل تصد بصدقة فأخفاها) خشية السمعة والرياء، واكتفى بمن يعلم ما في الأرض كما يعلم ما في السماء (حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه) من العطاء، فنال من الله الفوز والسعادة والتكريم، فجاهد نفسك لتكون مظللاً بهذا الظل الكريم.

(ورجل ذكر الله خاليًا) وحده في الخلوات (ففاضت عيناه) بالدموع من جلال الله وأسفًا على ما فات، فتنزلت عليه من ربه سحائب الرحمات والبركات، ويوم القيامة (سَلاَمٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ) (يّـس: 58).

وفي هذا الحديث: تعريف وتوجيه إلى أن يكون الإنسان عادلاً في جميع أحواله، فالعدل هو ضد الظلم، فمن ظلم نفسه بالمعاصي فليس بعادل؛ لأن العدل لا يختص بالإمام وحده، وإنما هو واحب على كل مسلم ومسلمة.

ويدعو هذا الحديث إلى توجيه الشباب إلى العبادة؛ لأن الشيطان يقول لهم: افعلوا ما شئتم فإذا كبرتم فعليكم بالتوبة والعبادة (يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ) (النساء: من الآية 120) فمن أجل ذلك النبي- صلى الله عليه وآله وسلم- رغب الشباب في العبادة والطاعة.

وأيضًا يحث النبي- ﷺ- على أن تكون المعاملة بين الخلق لله فالمسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يحقره ولا ينافق له ولا يحبه إلا لله الذي خلقه.

ويوجهنا على الخوف من الله تعالى وإلى مراقبة الله تعلى لأنه معنا حيثما كنا وأنه يسمع كلامنا ويرانا، وفي الحديث الصحيح من دعائه- ﷺ-: «اللهم يا من يسمع كلامي ويرى مكاني» فإذا كان ذلك كذلك فيجب علينا أن نراقبه في الخلوة، وأن نراقبه مع الناس، فلا نفعل شيئًا يغضبه.

ويحثنا النبي- ﷺ- على الإنفاق في سبيل الله على الفقراء والمساكين وعلى المجاهدين في سبيل الله، وخصوصًا الذين يجاهدون ويقاتلون أشد الأعداء إلى المسلمين وهم اليهود، فيجب علينا أن نساعد إخواننا المجاهدين وأن نشجعهم ونبعث فيهم الروح المعنوية، وأن نعلمهم بأن هذا الجهاد فيه شرف الدنيا وشرف الآخرة.

إمام وشاب بالمساجد قلبه واثنان في شأن الإله تحببا
عفيف لدى ذات الجمال ومنفق ولله بالدمع الهتون تقربا

فهنيئًا لمن اتصف بهذه الصفات أو بواحدة منهن فإنه يكون يوم القيامة تحت ظل عرش العزيز الغفار.

الحديث السادس

عن ابن عمر- رضي الله عنهما- قال: قال- ﷺ-: «إنما يسلط على ابن آدم ما يخافه ابن آدم، ولو أن ابن آدم لم يَخَفْ غير الله لم يتسلط عليه أحد، وإنما وُكِلَ ابن آدم لمن رجا ابن آدم، ولو أن ابن آدم لم يرج إلا الله لم يكِلْهُ الله إلى غيره» [رواه البيهقي في السنن، والسيوطي في جمع الجوامع].

قلت: إن الخوف من الله- عز وجل- صفة من أجلّ الصفات، اختص الله بها رسله وأنبياءَهُ، وخاصته من أوليائه...

قال عليه الصلاة والسلام: «أعلمكم بالله وأخوفكم من الله أنا» [رواه الترمذي ولفظه: «نا أعرفكم بالله وأخوفكم منه»].

وقال- تعالى-: (يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ) (النحل: من الآية50).

ولمَّا كانت الملائكة الكرام لا يخافون إلا من الله آمن خوفهم من سواه، كما آمن خوف أنبيائه ورسله وخاصته وأوليائه، ولمَّا كان الخوف من الله من أعظم الصفات كافأ الله صاحبه ي الدنيا بالأمن وعدم الخوف من غير الله، وعاقب الخائف من غيره بأن عجَّل له العقوبة في الدنيا بتسليط من يخافهم من غير الله عليه...

ومما يوضح لنا ذلك: ما ذكره الصوفية من أن رجلاً زار رجلاً صالحًا بالبادية فبات عنده، فلما انتبه من نومه ذهب ليتوضأ من عين بجوار مسكن الصالح فلقي الأسد عندها، فجاء مهرولاً مرعوبًا، فقال له الرجل الصالح: ما شأنك؟ قال: إنه الأسد! فقام الرجل الصالح وذهب معه إلى الأسد، فقبض على أذنه وقال له: أما نهيتك عن التعرض لضيوفي؟! ثم انصرف الأسد!! فقال الرجل الصالح للضيف: خفتم من غي الله فأخافكم الأسد! وخفنا من الله فخاف منا الأسد...

وإذا اتصف العبد بهذه الصفة- وهي صفة الخوف من الله وحده لا شريك له- دخل في هذا الصونا لإلهي اذي أشار إليه سيدي الشفا السيد أحمد بن إدريس- رضي الله عنه- بقوله: «وصنِّي يا إلهي بصون حجاب العزة الأحمى، خلف سرادقات العظمة والكبرياء، في حضرة الذات عن جميع الأعيار والمخالفات، حتى لو طلبتني جميع البلايا كلها طلبًا حثيثًا لم تدركني؛ لكوني مصونًا عندك في حضرةٍ لا يتصور فيها بلاء».

هذا الصوت في حضرة الأمن الإلهي، على بساط القرب الرباني، قال تعالى: (وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ) (قريش: من الآية4) أي: لما خافوا منه وحده لا شريك له، آمن خوفهم من غيره، لمَّا علم أن الغير يطالبهم أدخلهم في حفظه وضرب عليهم سرادقات العظمة والكبرياء، وهي التي يُرَى بها صاحبها مجلاً موقرًا...

وفي الحديث: «اللهم أرني نفسي في عيني صغيرًا، وفي أعين الناس كبيرًا» [روى نحوه البزار عن بريدة]، «اللهم اجعلني شكورًا، واجعلني صبورًا، واجعلني في عيني صغيرًا، وفي أعين الناس كبيرًا».

وفي الحديث: «اللهم رب لك فذلِّلني، ولك فحبِّبني، وفي أعين الناس فعظِّمني».

وفي هذين الحديثين الإشارة إلى سرادقات العظمة والكبرياء...

وقد أشرنا إليك يا أخانا في الله- تعالى- بهذه الإشارة، وإن لم نَفِ بالعبارة، ولمَّا علم أنَّ الغير مطالبهم صانهم خلف حجاب العزة الأحمى- قال تعالى: (وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَاباً مَسْتُوراً) (الإسراء:45).

وهذا الحجاب لعله الذي أشار إليه سيدي أحمد بقوله: (حجاب العزة الحمى) يناله [أي: العبد] بطريق الوراثة المحمدية، وهذا الحجاب مع منعته وحصانته موصوف بالعزة- وهي الحفظ من الأعداء مع الغلبة والظهور عليهم- قال سيدي عبد القادر الجيلاني- رضي الله عنه- في دعائه (فمن اعتز بعزتك فهو عزيز لا ذلّ معه، ومن اعتزّ بدون عزتك فهو ذليل).

والخوف من زوال الرزق لا من الرزاق يؤدي إلى زواله والهمّ في تحصيله وهو عيب عند

الصوفية كالخوف من الخلق، ولهذا يقول سيدي علي أبو الحسن الشاذلي- رضي الله عنه-: «اللهم إني أعوذ بك من خوف الخلق، وهمّ الرزق، واقرب مني قربًا». فطلب الرزق بعد زوال الخوف من غير الله؛ لأنهما لا يجتمعان. قال سيدي أحمد بن إدريس- رضي الله عنه-: (وأوقفني وراء الوراء بلا حجاب عند اسمك المحيط في مقام السماع العام حتى تطربني لذة المكالمة الإلهية)...

قلت: ولا يكون الطرب إلا بعد زوال الخوف عند سماع المتكلم، ولا تحصل المكالمة مع الخوف من الغير؛ لوجود المشاركة للغير في القلب ولهذا يقول الله- عز وجل-: (إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا) (التوبة: من الآية40).

فالنبي- ﷺ- ينهى صاحبه أبا بكر- رضي الله عنه- عن الخوف من غير الله المسبب للحزن، ثم ينقله إلى معية الله المسببة للأمن والفرح فكأن النبي- ﷺ- يقول لسيدنا أبي بكر الصديق- رضي الله عنه- لا تخف من غير الله؛ لأننا في حضرة الله- تعالى-...

ولمَّا رأى سيدنا موسى- عليه السلام- الحية وخاف منها، قال الله- تعالى- له: (لا تَخَفْ إِنِّي لا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ) (النمل: من الآية10).

أي: لا خوف من غيره في حضرته وعند مشاهدته...

قال سيدي أحمد بن إدريس- رضي الله عنه-: «حتى يخاف سطوتي كلُّ ناظرٍ إليَّ بسوء».

قلت: وهذا الوصف لا يتم للعارف إلا بعد عدم الخوف من غير الله- تعالى-، والتمكن في الخوف من الله- تعالى-، فيحاط من الله بجلال يرعد كل ناظر إليه بسوء، ومن ذلك ما حصل للرجل الذي عندما دخل على النبي- ﷺ- صارت ترتعد فرائصه، فقال الله النبي- ﷺ-: «هوّن عليك فإني لست بملِك، إنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد» [رواه ابن ماجة. والقديد معناه: اللحم المجفف].

وكما قال سيدي أحمد بن إدريس- رضي الله عنه-: (فأجد لذة الوحي القرآنيّ الإلهيّ منّي إليّ)...

قلت: ولا تحل تلك اللذة إلا بعد عدم الخوف من غير الله تعالى فيطمئن القلب، ويحصل الأنس والتلذذ...

والخوف من غير الله- تعالى- لا يحصل بالله- تعالى-؛ لأنه في حضرة أنس وقرب وحبّ، مستوحش من غيره- سبحانه-، مستأنس به، كما قال سيدي ابن الفارض- رضي الله عنه-:

... واستأنست بالوحش إذ كانت من الإنس وحشتي

قلت: أما قوله: استأنست بالوحش، فعلى غير ظاهره؛ لأنه لم يستأنس بغير الله، وهو أراد: وسكنت بصحراء الوحش فرارًا من أن يميل القلب إلى الأنس بالإنس، ومن نفر من أنس الإنس فمن الأولى أن يفرَّ من غيره، وفي هذا تصريح بعدم الخوف من غير الله، ولذلك سكن الرجل الصالح بجوار الوحوش ولم يخش بأسهم، وقد تولى الله حفظه، مع العلم بأن الشرع لا يبيح لأحد أن يذهب إلى غابات الوحوش، ولكن الذي تولّى سيدنا يوسف- عليه السلام- في غيابات الجبّ، ونجّى سيدنا يونس- عليه السلام- من الظلمات، ونجّى خليله- عليه السلام- من النار، وكتب السلامة لحبيبه- ﷺ- في الغار، قادر- سبحانه وتعالى- على أن يحفظ أحبابه إذا ساقهم الحال إلى الصحراء والجبال...

حكى الغزالي- رحمه الله- في إحيائه أن رجلاً من الصالحين من أرباب الأحوال، كان يمشي بالصحراء، فسقط في حفرة، ولم يستطع الخروج منها، فمرَّ جماعة، فاستحيا من الله- تعالى- أن يستغيث بهم، وبعد ذلك رأى الرجل يدًا مُدت إليه، فتعلّق بها، فلما خرج من الحفرة إذا به يفاجأ بأن الذي مدَّ إليه يده هو الأسد، ألهمه الله- سبحانه- أن ينقذ الرجل من ورطته، ثم انصرف الأسد لحال سبيله، فقال الرجل: سبحان من أنجاني من الهلاك بالهلاك !.

وهذا الرجل الصالح إنما وصل إلى هذه المنزلة، وأكرم بهذه الكرامة لكونه لم يخف من غير الله لرسوخ حبّ الله في قلبه، فيصدق عليه قول الله- تعالى-: (لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ) (يونس: من الآية62).

لأنهم خافوا من الله لا من غيره، والخوف إنما يكون من الغير لمشاهدة الغير...
(ولا يحزنون) أي: لأنهم شاهدوا حبيبهم معهم، وإنما يكون الحزب بحجب الحبيب.
ولمَّا فسَّر سيدي أبو الحسن الشاذلي- رضي الله عنه- قوله- تعالى-: (إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً) (فاطر: من الآية6) قال: «فهم قوم من الآية: وإن الرحمن لكم حبيب فاتخذوه حبيبًا، فاشتغلوا بالحبيب فكفاهم الحبيب مضرة العدوّ».
قلت: وذلك لعدم خوفهم من العدو، وأنسهم ووثوقهم بالحبيب، ولما سمعوا نداء الحق- سبحانه وتعالى-: (فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) (آل عمران: من الآية 175). وهنا نداء للعوام والخواص:
فنداء الخواص: إن كنتم مؤمنين بي، وشاهدين لي، ومحبين لي؛ لأن الخوف من غير لا يجتمع مع تلك الصفات...
قال سيدي علي وفا: «مَن وجدك فما فاته شيء، ومَن فقدك فقد فاته كل شيء، جهلت نفسٌ لم تَرَكَ عليها رقيبًا، وخسرت تجارة رجل لم ينل من حبك نصيبًا، متى غبت حتى تحتاج إلى دليل، وأنت حسبي ونعم الوكيل».

الحديث السابع

عن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله- ﷺ-: «من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين ويلهمه رُشده» [أخرجه البخاري وغيره].

التفقه في الدين: أن يتعلم الرجل الواجبات التي أوجبها الله عليه ليفعلها، وأن يعلم المحرمات التي حرمها الله تعالى حتى يتجنبها، فمن فعل الواجب كما ينبغي، وانتهى عن الحرام كما ينبغي فهو من أهل الجنة.

والفقه في اللغة هو الفهم، وعرفه العلماء بأنه الأحكام الشرعية المكتسبة من أدلتها التفصيلية.

فالقرآن والسنة: دليل إجمالي، وقوله تعالى: (وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ) (النور: من الآية 56) دليل تفصيلي، وقوله- ﷺ-: «إنما الأعمال بالنيات» [رواه البخاري ومسلم عن عمر رضي الله عنه] دليل تفصيلي يؤخذ منه وجوب النية في الأعمال كلها، ومن لم يعلم الأحكام وجب عليه تقليد إمام من المجتهدين الذين استنبطوا الحكام التفصيلية من أدلتها الإجمالية.

وأما من يقول: لا أتبع الأئمة فهو أجل من حمار أم عمرو:

إذا ذهب الحمـار بأم عمــرو فلا رجعت ولا رجـع الحمـار

وقد قال الإمام إبراهيم اللقاني في منظومته (جوهرة التوحيد):

فمـالك وسـائر الأئمـــة كذا أبو القاسم هداة الأمـــة

فواجب تقليد حـبر منهـم كذا حكى القوم بلفظ يُفهـــم

قال لي رجل: أنا لا أقلد مذهبًا بل أسير على الكتاب والسنة فقلت له: أسألك بالله: هل تحفظ القرآن والسنة؟ قال: لا. ليس بواجب، قلت له: أنت إذن تدخل فيمن قال الله فيهم (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً) (الأنعام: من الآية 21) فقد افتريت على الله تعالى، وادعيت أنك تحفظ كتابه وأنت جاهل به، وافتريت على النبي- ﷺ- وادعيت أنك تعمل بالسنة وأنت جاهل بالسنة. وبعض الناس يتكلم بجرأة على الله تعالى لأنه احتجب عنهم، ولو رأوه لتدكدكوا كالجبل.

ويجب أن تعتقد في ربك عقيدة صحيحة تتعلمها من العلماء، وتعرف نبيك- ﷺ- وتعرف قدره ومقداره عند الله تعالى.

الحديث الثامن

عن أبي واقد الليثي- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله- صلى الله عليه وعلى آله وسلم-: «ألا أخبركم عن النفر الثلاثة: أما أحدهم فأوى إلى الله- تعالى- فآواه الله... وأما الآخر فاستحيا، فاستحيا الله منه... وأما الآخر فأعرض... فأعرض الله- عنه» [أخرجه مسلم والترمذي والنسائي].

قال شراح الحديث: سمَّى النبي- ﷺ- مجلس العلم: مجلس الله، وجعل المعرض عنه أعرض عن الله. وهذه قيمة عظيمة لمجالس العلم وللعلماء.

فعليكم أيها الناس بسماع العلم ومذاكرة العلم؛ لأنه هو النور الذي يسترشد الإنسان به، قال سيدنا علي- رضي الله عنه وكرم الله وجهه-: (الناس موتى وأهل العلم أحياء) ما علينا إلا أن نجتهد في القرآن العظيم ما استطعنا أن نقرأ منه ولو شيئًا يسيرًا؛ لأن الإنسان إذا دُفن في قبره وكان حافظًا للقرآن أضاء له نور كالشمس، فإن لم يحفظ القرآن أضاء له نور بقدر ما يحفظ من القرآن، وقال عليه الصلاة والسلام: «حملة القرآن أهل الله وخاصته» [رواه الإمام أحمد وأبو نعيم في الحلية عن معاذ].

وقال عليه الصلاة والسلام: «رحم الله خلفائي، قالوا: ومن خلفاؤك يا رسول الله؟ قال: الذين يأتون من بعدي يبلغون الناس سنتي» [روي بلفظ قريب منه في الأوسط للطبراني].

وقال عليه الصلاة والسلام: «نضر الله امرءا- أي نوّر وجهه- سمع مقالتي فوعاها فأداها كما سمعها» [رواه أحمد والترمذي وابن حبان].

وقال عليه الصلاة والسلام: «فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب» [رواه أبو نعيم في الحلية]. فعليكم أيها الناس بالعلم فإنكم تخلصون به من ظلمات الجهل، وبه تعرفون ربكم، وبه تعرفون شرعكم أوحى الله تعالى إلى سيدنا إبراهيم عليه السلام: «يا إبراهيم إني عليم أحب كل عليم» [ذكره ابن عبد البر].

الحديث التاسع

«عن مالك عن ابن شهاب أن عمر بن عبد العزيز أخّر الصلاة يومًا فدخل عليه عروة بن الزبير فأخبره أن المغيرة بن شعبة أخّر الصلاة يومًا وهو بالكوفة، فدخل عليه أبو مسعود الأنصاري فقال: ما هذا يا مغيرة؟ أليس قد علمت أن جبريل نزل فصلى فصلّى رسول الله- ﷺ- يعني الظهر، ثم نزل فصلّى فصلّى رسول الله- ﷺ- يعني العصر، ثم نزل فصلّى فصلّى رسول الله- ﷺ- يعني المغرب، ثم نزل فصلّى فصلّى رسول الله- ﷺ- يعني العشاء، ثم نزل فصلّى فصلّى رسول الله- ﷺ- يعني الصبح، ثم قال: بهذا أمرت» [رواه البخاري في مواقيت الصلاة].

(ثم قال بهذا أمرت) يعني جبريل عليه السلام.

ويعلم من ذلك أن أوقات الصلاة لابد من مراعاتها، وأن أمرها عظيم عند الله تعالى، لذلك أُمِر جبريل عليه السلام أن ينزل على النبي- ﷺ- ليبين له أوقات الصلوات الخمس.

وقد أنزل الله تعالى الوعيد الشديد لمن أضاعوا أوقات الصلاة وصلوها في غير أوقاتها، فقال سبحانه: (فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّين. الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ سَاهُونَ) (الماعون: 4، 5) والويل: عذاب أليم، أو واد في جهنم، أو جُب في جهنم. وهذا الوعيد لمن أضاع أوقات الصلاة فكيف حال التاركين؟!

الحديث العاشر

عن أنس بن مالك- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله- ﷺ-: حُبِّب إليّ من دنياكم ثلاث: النساء، والطيب، وجعلت قُرَّة عيني في الصلاة» [رواه السيد أحمد بن إدريس والإمام أحمد والنسائي والحاكم والبيهقي].

قال العالم الصوفي الشيخ أحمد بن عطاء الله السكندري المالكي- رحمه الله-: قرة العين بالشهود على قدر المعرفة بالمشهود، والنبي- ﷺ- لم تقر عينه إلا بالله تعالى ولذلك قال: (في الصلاة) ولم يقل: بالصلاة.

قلت: الصلاة حبيبة الأرواح، وفيها مناجاة حبيبها، وتنزلات فيوضات المناجاة والتجلّيات، وهي عرس الأرواح، ومهبط الريحان والراح، وحق للعيون أن تقرَّ بها؛ لأن فيها القرب من ربها.

فعليك يا أخانا بالإقبال عليها فرضًا ونفلاً لتنال بها ما ناله المصلون الذين خشعوا لربهم في صلواتهم، فنالوا من ربهم فلاح المفلحين وإنابة المخبتين.

قال الحافظ القسطلاني: سميت الصلاة صلاة لأمور:

أولها: أنها توصل إلى الجنة، روي عن عليّ- رضي الله عنه- أنه قال: تدرون لِمَ سميت الصلاة صلاة؟ قالوا: لا يا أمير المؤمنين. قال: لأنها توصل صاحبها إلى الجنة.

ثانيها: أنها من الصلة؛ لأن العبد إذا فعلها اتصل بربه، وإذا تركها انقطع، روي عن جابر- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله- ﷺ-: «بين العبد وبين الكفر ترك الصلاة» [أخرجه مسلم وابن ماجه].

ثالثها: أنها من التصلية بمعنى التقويم؛ لأنها تقوم الإنسان وتصلح قلبه وعقله.

رابعها: أنها سميت صلاة لمواصلة الله العبد بتعهده بنعمة عند فعلها كما قال تعالى: (وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لا نَسْأَلُكَ رِزْقاً نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى) (طـه: 132).

خامسها: سميت صلاة؛ لأنها توصل تاركها إلى النار، قال عليه الصلاة والسلام: «إذا صلى العبد الصلاة فلم يتم ركوعها ولا سجودها تُلف كما يُلف الثوب الخلق، ثم يُضرب بها وجه صاحبها» [أخرجه السيوطي].

الحديث الحادي عشر

عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «بينما النبي- صلى الله عليه وعلى آله وسلم- جالس وأسماء بنت عميس قريبة منه إذ رد السلام وقال: يا أسماء هذا جعفر مع جبريل وميكائيل مروا فسلموا علينا، وأخبرني أنه لقي المشركين يوم كذا ويوم كذا، قال: فأصبت في جسدي من مقادمي ثلاثًا وسبعين من طعنة وضربة ثم أخذت اللواء بيدي اليمنى فقُطعت، ثم أخذته بيدي اليسرى فقُطعت، فعوضني الله من يدي جناحين أطير بهما مع جبريل وميكائيل، أنزل من الجنة حيث شئت وآكل من ثمارها ما شئت. قالت أسماء: هنيئًا لجعفر ما رزقه الله من الخير، لكني أخاف أن لا يصدقني الناس فاصعد المنبر فأخبر به الناس. فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: إن جعفر بن أبي طالب مرّ مع جبريل وميكائيل عوضه الله من يديه جناحين فسلم عليّ. ثم أخبرهم بما أخبره به» [أخرجه الحاكم].

وأخرج ابن عساكر من طريق ابن إسحاق قال: حدثني الحسين بن عبد الله بن عباس أن رسول الله- صلى الله عليه وعلى آله وسلم- قال بعد قتل جعفر: «لقد مرّ بي الليلة جعفر يقتفي نفرًا من الملائكة له جناحان مختضبة قوادمهما بالدم يريدون بيشة بلد باليمن».

وأخرجه ابن عدي من حديث علي بن أبي طالب- كرم الله وجهه- أن رسول الله- صلى الله عليه وعلى آله وسلم- قال: «عرفت جعفرًا في رفقة من الملائكة يبشرون أهل بيشة بالمطر».

أيها الأخ المؤمن: هل قرأت حديث الشهيد سيدنا جعفر الطيار بن أبي طالب رضي الله عنه؟ فإذا قرأته وفهمته فقد فهمت شيئًا عجيبًا وغريبًا، وإنما أردت أن أبيّن لك فضل الله تعالى على أحبابه، وكيف يخرق لهم العوائد؛ لأجل أن أنقلك إلى أن تفكر في فضل خاتم النبيين والمرسلين- صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

إذا كان ابن عمه الشهيد سيدنا جعفر يطير مع الملائكة، ويأتي من الجنة إلى الدنيا ليبشر أهل بلد باليمن بالمطر، وذلك بعد أن قُتل ودُفن تحت التراب، فهل بلغك أن هذا الذي تحت التراب شهد الله تعالى له بالحياة، وأنه في الجنة؟ كيف عاد إلى الدنيا وصار يطير مع الملائكة الكرام؟!

ويؤيد هذا الحديث الأحاديث التي وردت في الإسراء، وأن الله تعالى قد جمع النبيين والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين له- صلى الله عليه وعلى آله وسلم- فصلى بهم إمامًا، وهذه المسألة عند العلماء تسمى معجزة، ومسألة سيدنا جعفر رضي الله تعالى عنه تسمى كرامة، والمعجزات والكرامات ثبتت بالكتاب والسنة والإجماع، وقد قال العلماء: كل معجزة لنبي تجوز أن تكون كرامة لولي.

الحديث الثاني عشر

عن أنس بن مالك- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله- ﷺ-: «الأنبياء أحياء في قبورهم يصلُّون» [أخرجه البيهقي، ونسبه السيوطي في الجامع الصغير إلى أبي يعلى الموصلي في مسنده، وقال شارحه: هو حديث صحيح. أهـ].

قال صاحب نظم المتناثر من الحديث المتواتر: إن من جملة ما تواتر عن النبي- ﷺ- حياة الأنبياء عليهم السلام في قبورهم، وقال السيوطي في مرقاة السعود حاشية سنن أبي داود: «حياة النبي- ﷺ- في قبره هو وسائر الأنبياء معلومة عندنا علمًا قطعيًا لما قام عندنا من الأدلة على ذلك، وتواترت الأخبار الدالة على ذلك».

وقال ابن القيم- رحمه الله- في كتاب الروح= نقلاً عن أبي عبد الله القرطبي-: صحَّ عن النبي- صلى الله عليه وآله وسلم- أن الأرض لا تأكل أجساد الأنبياء، وأنه- ﷺ- اجتمع بالأنبياء ليلة الإسراء والمعراج في بيت المقدس، وفي السماء، خاصة بسيدنا موسى- عليه السلام- وقد أخبر- ﷺ- بأنه ما من مسلم يسلِّم عليه إلا ردَّ الله عليه روحه، حتى يردَّ عليه السلام... إلى غير ذلك ممَّا يحصل من جملته القطع بأن موت الأنبياء- عليهم السلام- إنما هو راجع إلى أنهم غيبوا عنَّا بحيث لا ندركهم وإن كانوا موجودين أحياء، وذلك كحال الملائكة، فإنهم أحياء موجودون، ولا نراهم...

وقد دلَّ القرآن على حياة النبي- ﷺ- وحياة جميع النبيين والمرسلين- عليهم السلام- فهم أحياء بعد وفاتهم أيضًا، وذلك أن الله- تعالى- قال: (وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ) (آل عمران: من الآية169).

فهذه الآية تدل على حياة جميع الأنبياء بمفهوم الموافقة، وذلك أن الأنبياء أولى بتلك المنقبة من الشهداء، وتدل على حياة نبينا- ﷺ- بعموم لفظها، وذلك أن الله- تعالى- جمع له بين النبوة والرسالة والشهادة- كما صحت الأخبار بذلك...

قال- عليه الصلاة والسلام-: «إن الله حرَّم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء» [مروي عن أنس بن أوس من حديث طويل، أخرجه أبو داود والإمام أحمد والنسائي وابن ماجه والدارمي والبيهقي في كتاب الدعوات الكبير، وابن خزيمة، وابن حبَّان في صحيحه، والطبراني في الكبير، وسعيد بن منصور في سننه، وابن أبي شيبة، والحاكم وصححه، وصححه أيضًا: النووي- رحمهم الله أجمعين-].

وقد نظمت بفضل ربِّي المخرّجين لهذا الحديث- بسبب كثرتهم- ليسهل حفظهم، فقلتك

تحريم أكل الأرض جسمًا للنبـي قد قـاله المختار خير العـرب
أخـرجه عشـر كذاك اثنـان من سـادة الحديث والإتقـان
وإمامنـا أحمـد والنسـائي كذا ابن حبّان بلا امـتراء
والطبـرانيّ لـدى الكبيـر ثم ابن ماجة عـالمٌ نحـرير
وابن خزيمـة كذا سعـيد في سنن أقـوالها تفيـد
وابن أبي شيبـة ثم الدارمـي فاحفظ حديث الفضل كالأكـارم

وأخرج أبو يعلى عن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: سمعت رسول الله- ﷺ- يقول: «والذي نفسي بيده لينزلنَّ عيسى بن مريم، ثم لئن قام على قبري فقال: يا محمد لأجيبنَّه».

وقال الإمام القرطبي حافظ الأندلس في التذكرة- في شرح حديث الصعقة عن شيخه ما نصه-: «الموت ليس بعدم محض، وإنما هو انتقال من حال إلى حال، ويدل على ذلك أن الشهداء بعد قتلهم وموتهم أحياء يرزقون، فرحون، مستبشرون، فهذه صفة الأحياء في الدنيا، فإذا كانت ثابتة للشهداء فالأنبياء أحق بذلك وأولى.

وقد صحَّ أن الأرض لا تأكل أجساد الأنبياء، وأنه- ﷺ- اجتمع بالأنبياء ليلة الإسراء في بيت المقدس وفي السماء، ورأى موسى قائما يصلي في قبره، وأخبر- ﷺ- أنه يرد السلام على كل من

يسلّم عليه، إلى غير ذلك ممّا يحصل من جملته القطع بأن موتهم إنما هو راجع إلى أنهم غيبوا عنّا بحيث لا نراهم، وإن كانوا موجودين أحياء، ولا يراهم أحد من نوعنا إلا من خصَّه الله تعالى بالكرامة» أهـ.

وقال البيهقي في دلائل النبوة: الأنبياء أحياء عند ربهم كالشهداء.

وقال الشيخ تقي الدين السبكي في مؤلفه (جمع الجوامع) ما نصه: «حياة الأنبياء والشهداء في القبر كحياتهم في الدنيا، ويشهد له صلاة موسى في قبره، فإن الصلاة تستدعي جسمًا حيًّا، وكذلك الصفات المذكورة في الأنبياء ليلة الإسراء كلها صفات الأجسام، ولا يلزم من كونها حياة حقيقة أن تكون الأبدان معها كما كانت في الدنيا من الاحتياج إلى الطعام والشراب، وأما الإدراكات كالعلم والسماع فلا شك أن ذلك ثابت لهم ولسائر الموتى» أهـ.

وقال البرهان اللقاني في شرح جوهرة التوحيد ما نصه: الرابع- أي من التنبيهات-: أن الأنبياء أحياء في قبورهم وبعد موتهم. أهـ.

وقال الإمام بدر الدين بن الصاحب في تذكرته ما نصه: فصل في حياته-ﷺ-بعد موته في البرزخ،وقد دلَّ على ذلك تصريح الشارع وإيماؤه،ومن القرآن الكريم قوله تعالى:(وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ)(آل عمران: 169).

فهذه الحالة- وهي الحياة في البرزخ بعد الموت- حاصلة لآحاد الأمة من الشهداء، وحاصلة لمن له هذه المرتبة ولا سيما في البرزخ، ولا تكون رتبة أحد من الأمة أعلى من النبي- ﷺ- بل إنما حصلت لهم هذه الرتبة بتزكيته وتبعيته...

وقال فيها- أيضًا- ما نصه: «وقال- عليه الصلاة والسلام- (مررت على موسى ليلة أُسري بي عند الكثيب الأحمر، وهو قائم يصلي في قبره) [رواه مسلم].

وهذا صريح في إثبات الحياة لموسى عليه السلام، فإنه وصفه بالصلاة وأنه كان قائمًا، ومثل هذا لا توصف به الروح، وإنما يوصف به الجسد، وفي تخصيص الصلاة بالقبر دليل على هذا، فإن الحياة لو كانت من أوصاف الروح وحدها لما احتيج إلى التخصيص بالقبر، فإن أحدًا لم يقل إن أرواح الأنبياء مسجونة في القبر مع الأجساد، وأرواح الشهداء والمؤمنين في الجنة... أهـ.

وقال البرهان اللقاني في شرحه الصغير ما نصه: «ونقطع بعودة حياة كل ميت في قبره، وبنعيم القبر وعذابه، وهما من الأعراض المشروطة بالحياة، لكن لا يتوقف على البنية، وأما أدلة الحياة في الأنبياء فمقتضاها أنها مع البنية، وقوة النفوذ في العالم، مع الاستغناء عن العوائد الدنيوية، ومن هنا قال أبو الحسن الأشعري- رحمه الله-: النبي- ﷺ- في حكم الرسالة الآن» أهـ.

وسُئل البارزي- رحمه الله تعالى-: هل النبي- ﷺ- حيٌّ في قبره؟ فأجاب: نعم، هو حيٌّ.

وقال الأستاذ أبو منصور عبد القادر بن طاهر الفقيه الأصولي البغدادي شيخ الشافعية في أجوبة مسائل:

قال المتكلمون المحققون من أصحابنا: إن نبينا محمدًا- ﷺ- حيٌّ بعد وفاته، وأنه يبشر بطاعات أمته، ويحزن لمعاصي العصاة، وأنه تبلغه صلاة من يصلي عليه من أمته.

وقال: «إن الأنبياء لا تبلى أجسادهم، ولا تأكل الأرض منهم شيئًا، وقد مات سيدنا موسى- عليه السلام- في زمانه، وأخبر نبينا- ﷺ- أنه رآه في قبره مُصلّيًا، وذكر في حديث المعراج أنه رآه في السماء الرابعة، ورأى آدم وإبراهيم- عليهما السلام- وإذا صحَّ لنا هذا الأصل قلنا: إن نبينا- صلى الله عليه وآله وسلم- قد صار حيًّا بعد وفاته، وهو في نبوته» أهـ.

وقال الحافظ البيهقي في كتاب الاعتقاد: إن الأنبياء- عليهم السلام- بعد ما قُبضوا رُجَّت إليهم أرواحهم، فهم أحياء عند ربهم، وقد رأى نبينا- ﷺ- جماعة منهم وأمَّهم في الصلاة، وأخبر- وخبره صدق- أن صلاتنا معروضة عليه، وأن سلامنا يبلغه، وأن الله حرَّم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء...

قال الحافظ البيهقي- رحمه الله- وقد صنفت لإثبات حياتهم كتابًا.
ثم قال: اللهم أحينا على سنة هذا النبي الكريم، وأمتنا على ملّته، واجمع بيننا وبينه في الدنيا والآخرة إنك على كل شيء قدير. أهـ
لت: ودعاء هذا الشيخ يوافق ما ذكره شيخنا في صلاته العظيمية: (واجمع بيني وبينه كما جمعت بين الروح والنفس ظاهرًا وباطنًا يقظةً ومنامًا).
وقال الشيخ عفيف الدين اليافعي: الأولياء ترد عليهم أحوال يشاهدون بها ملكوت السماوات والأرض، ينظرون الأنبياء غير أموت، كما نظر النبي- ﷺ- إلى موسى- عليه السلام- في قبره، وقد تقرر أن ما جاز للأنبياء معجزة جاز للأولياء كرامة، بشرط عدم التحدي،ولا ينكر ذلك إلا جاهل، ونصوص العلماء في حياة الأنبياء كثيرة فلنكتف بهذا القدر.أهـ
وحكايات العارفين كسيدي أحمد الرفاعي لمَّا وقف عند القبر الشريف وأنشد بيتيه المشهورين فخرجت اليد الشريفة وصافحته، وهي مشهورة متداولة...
أقول بفضل الله العلي: ومما يدلُّ على أنه- ﷺ- حيٌّ بجسمه وروحه: قول الله تعالى: (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ) (لأنفال: من الآية33).
وضمير (وأنت) إنما يدل على الروح والجسد والحياة، فيلزم من وجوده- ﷺ- كما هو: رفعُ العذاب، وقد رفع عنهم وهو فيهم، كقوله تعالى: (وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاةَ) (النساء: من الآية102).
أي: معهم بجسمك وروحك...
وقول الله- تعالى-: (إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ) (الفتح: من الآية 10) والبيعة لا تنفع إلا بالإقرار بالشهادتين، حينما كان- ﷺ- بين أصحابه- رضي الله عنهم- وبعد أن لحق بالرفيق الأعلى بقيت البيعة كما هي، فلو لم يكن حيًّا بعد الموت، ولو لم تكن رسالته- ﷺ- باقية كما هي لغيرّت البيعة...
وإذا كان الإسلام لا يتمُّ ولا يقبل إلا بذكر اسمه، فذكر اسمه- ﷺ- وسيلة في قبول الإسلام والإيمان.
وقول الله- تعالى-: (أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ) (النساء: من الآية 59)، وهذا الأمر باقٍ إلى يوم القيامة، فالطاعة هي الطاعة، والرسول- ﷺ- هو الرسول، وطاعته الواجبة حينما كان بين أصحابه هي طاعته الواجبة الآن، فمن أنكر الأولى كفر، ومن أنكر الثانية كفر...
وإنما كانت الطاعة الأولى لرسول حيٍّ بجسمه وروحه، واليوم تبقى له الرسالة والطاعة، وهما أفضل من الحياة، ويلزم منهما الحياة، فتأمل في قولي هذا لعلك ترشد.
وقول الله تعالى: (فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاءِ شَهِيداً)(النساء: 41) فهل المراد (بهؤلاء) الصحابة فقط أم الأمة جميعها؟ بل المراد: الأمة الشاملة للصحابة وغيرهم إلى يوم القيامة، إذ هو- ﷺ- شهيد الأمة...
وقال تعالى: (وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ) (التوبة: من الآية 62) ورضاء الله تعالى يكون بطاعة الله تعالى، ورضاء النبي- ﷺ- يكون بطاعة الله تعالى، فليعتقد الطائع أن الله- تعالى- راض عنه الآن، وأن نبيّه- ﷺ- راضٍ عنه الآن...
قال الله- تعالى- لنبيه- ﷺ-: (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ) (الأنبياء: 107) فالرحمة مستمرة حتى الآن، وإلى ما شاء الله...
وقال تعالى: (مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) (النحل:97).
وقد أحيا الله- تعالى- نبيه- ﷺ- في الحياة الدنيا بأطيب حياة؛ لأنها حياة النبوة والرسالة والجهاد والعبادة...
وأحياه بعد الموت حياة، وجزاه بأحسن ما كان يعمل- ﷺ- فإذا كان الجزاء أحسن كانت الحياة أحسن، والجزاء الحسن يبتدئ من لحظة إخراج الروح، قال تعالى: (الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ

يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ) (النحل: من الآية 32)، وقال تعالى: (أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا) (فصلت: من الآية30)، وقال تعالى: (يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ. ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً) (الفجر: 27، 28).

فهذا كله من الجزاء الحسن، الأحسن، عند الاحتضار، وأما ما بعده فقال النبي- صلى الله عليه وآله وسلم-: «القبرة إما روضة من رياض الجنة وإما حفرة من حفر النار».

فإمام الأنبياء والمرسلين- ﷺ- هو أفضل الناس حياة بعد الموت، وأعلاهم روضة في القبر، وأحسنهم جزاء؛ إذ كان- ﷺ- أفضلهم أعمالاً، وأكرهم طاعة وجهادًا وتهجدًا وعبادة وتلاوة، وأكثرهم ذكرًا لربّ العالمين...

وقال ابن حجر الهيتمي- رحمه الله-:

تواترت الأدلـــة والنقــولُ فما يحصي المصنف ما يقولُ
بأنَّ المصطفى حـيٌّ طَــرِيٌّ كبدر التمّ ليس لهُ أفــولُ
ولم تأكـل له الغــبراءُ جِسْمًا وَلا لحمًا وأثبت ما أقــول

وهذه الأبيات من قصيدة طويلة شرحها شيخنا المحدث حبيب الله الشنقيطي- رحمه اله.

وذكر الحافظ عبد العظيم المنذري في كتابه «الترغيب والترهيب» في باب صلاة الحاجة: أن عثمان بن حنيف علَّم رجلاً له حاجة عند سيدنا عمان بن عفان- رضي الله عنه- أيام خلافته حديثَ الأعمى الذي فيه التوسل به- ﷺ- وكان ذلك بعد وفاة النبي- ﷺ- فعلم من ذلك حياته- صلى الله عليه وآله وسلم- بعد الموت؛ لأن سيدنا عمر- رضي الله عنه- وغيره من الصحابة أخبروا أنهم كانوا يتوسلون به- ﷺ- وقت حياته، وتوسل به- ﷺ- بعد وفاته دليل على حياته بعد الموت عند ربه- سبحانه وتعالى-.

وقد أوجب الله- سبحانه- الصلاة والسلام على نبيه وقت حياته وبعد وفاته- ﷺ-.

وقد أجمع العلماء على وجوب الصلاة والسلام عليه- ﷺ- في العُمر مرَّة.

وقال الطحاوي- رحمه الله- تجب كلما ذكر، وارتضاه الحليمي- من الشافعية- لقوله- ﷺ-: «رغم أنف رجل ذُكرت عنه فلم يصلّ عليّ» [أخرجه الترمذي والحاكم عن أبي هريرة...].

الحديث الثالث عشر

عن أبي سعيد الخدري- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله- ﷺ-: «إذا وضعت الجنازة، واحتملها الرجال على أعناقهم، فإن كانت صالحة قالت: قدِّموني، وإن كانت غير صالحة قالت: يا ويلها: أين تذهبون بها، يسمع صوتها كلُّ شيء إلا الإنسان ولو سمعه صعق».

هذا الحديث ذكره البخاري في باب حمل الرجال الجنازة دون النساء.

والجنازة: تطلق تارة على الميت، وتارة على النعش، فمن ذلك قولهم: غسلُ الجنازة، ودفن الجنازة، يعني الميت، ومن إطلاقها على النعش قول الشاعر الذي استشهد به الدجوي- رحمه الله- حينما كان يقرأ تفسير قوله تعالى: (ثُلَّةٌ مِنَ الأَوَّلِينَ. وَثُلَّةٌ مِنَ الآخِرِينَ) (الواقعة: 39، 40).

قال: الثلة: تُطلق على مجموعة من الغنم، كقول الشاعر:

تروِّعنا الجنائز مقبلات ونلهو حين ترجع مدبرات
كروعة ثلة لمغار ذئب فلما عاد عادت راتعات

فالمراد بالجنازة هنا: السرير الذي يُحمل عليه الميِّت، واستدل ابن حجر على أن المراد به الميت أو السرير، حيث قال: يحتمل أن يريد بالجنازة نفس الميت، وبوضعه: جعله في السرير، ويحتمل أن يراد: السرير.

اعلم أن عالم الغيب- وهو الذي لا ندركه بالحواس الخمس- قد غاب عنَّا، كما قال القرطبي- رحمه الله تعالى- في أول تفسيره لقوله- تعالى-: (الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ) (البقرة: من الآية 3) قال: «الغيب: ما غاب عنّا، كما قال الشاعر:

وبالغيب آمنّا وقد كان قومنا يصلُّون للأوثان قبل محمد

فالروح: من عالم الغيب: فلذلك لا تُدرك بالحواس، وقد يقع من الميت شيئان بعد خروج روحه: كلامه على السرير وهو محمول على الأعناق، وجوابه حين يسأل في القبر، وكلاهما من الغيب» أهـ.

أما كلامه وهو محمول فوق الأعناق ففيه أقوال، أظهرها عندي الذي قاله الحسن بن بطَّال المالكي شارح البخاري- رحمه الله تعالى- ورجحه الحافظ ابن حجر- رحمه الله تعالى- أن كلامه يكون بالروح فقط، فهو من عالم الغيب.

والروح لا ترى ولا تسمع كلامها إلا في النوم، وأما في اليقظة فلا... وأما جواب الميت عن السؤال في القبر فقد ورد أنه للروح والجسد، لكن على طريقة الغيب الذي لا يرى ولا يسمع، بمعنى: لو حفر إنسان القبر، أو لو تركنا الميت والقبر مفتوحًا، وجاءته الملائكة، وسألته، فإننا لا نرى ولا نسمع شيئًا، ولو مكث إنسانٌ في القبر مع الميت، وجاءته الملائكة وسألته فلا يسمع الحيُّ شيئًا، ولا يرى شيئًا؛ لأن عالَم الغيب لا يُرَى... وقد ورد في الحديث: «القبر إما روضة من رياض الجنة، وإما حفرة من حُفَر النار» [رواه الترمذي].

وهذا الكلام يحتاج إلى شرح، فنحن قد آمنا وصدقنا بذلك، فلو حفرنا القبر وفتحناه على الميت فلن نرى جنة ولا نارًا...

واعلم أن القبر قبران: قبر للجسد الذي ندفنه فيه، وقبر تجعله الملائكة، فإن كان الميت من أهل الجنة جعلت قبره روضة من رياض الجنة، وإن كان من أهل النار جعلت قبره حفرة من حفر النار، وهذا من عالم الغيب الذي لا يُرَى.

قال تعالى: (مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى)(طـه:55).

يعني الإجساد لا الأرواح؛ لأن الأرواح ليست من الأرض، ولا تُدفن فيها، ولا تخرج منها...

قال سيدي أحمد زروق المغربي المالكي- رضي الله تعالى عنه-: «عالم الغيب نؤمن به ولا نجهد أنفسنا في أن تتصوره عقولنا، لأنها لا تدركه» أو كما قال. أهـ.

وكل ما يقع من الميت بعد خروج الروح إذا ظهر لنا فهو أمر خارق للعادة أخرج البخاري: «أن

صحابيًا كان يقسم أنه لا يضحك حتى يعلم أنه من أهل الجنة، فلما مات ووُضع في المغتسل تبسَّم، فعلم الصحابة- رضي الله تعالى عنهم- أنه علم أنه من أهل الجنة»...
وإذا علم الميت أنه من أهل الجنة قال للذين يشيعون جنازتهُ: قدّموني قدّموني، ليستأنس بهم؛ لأنه فرح مسرور، وإذا كان غير ذلك يقول: يا ويلاه. أي: يا عذابي؛ لأنه يعلم أنه من أهل العذاب، فهو لا يريد أن يذهب إلى قبره؛ لعلمه بالعذاب الذي ينتظره في القبر...
(فائدة): اعلم أن الميت ينعم قبل خروجه من بيته بالكلام الطيب من الملائكة، كما في قوله تعالى: (يقول سلامٌ عليكم) (النحل: 32).
وكما في قوله- تعالى-: (تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ) (فصلت: من الآية30).
فهذا القول من النعيم؛ لأن الميت يفرح به فرحًا عظيمًا، وأما من كان من أهل النار، فيُسَاء ويحزن؛ لقول الملائكة له كان مثله: (أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ) (الأنعام: من الآية93) وفي قوله تعالى: (وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ) (الأنفال:50).
فالكافر يذوق عذاب الحريق قبل أن يخرج من بيته...
وقد روى البخاري- رضي الله تعالى عنه- عن النبي- ﷺ- أنه قال: «إن المؤمن يكشف له عن مقعده في الجنة فيحب لقاء الله تعالى، ويحب الله لقاءه».
قلت: لعل هذه الأشياء هي التي تجعل المؤمن يقول: قدّموني، وتجعل الكافر يقول: يا ويلاه؛ لأن الغيب لا يعلمه إلا الله تعالى.
وعلم من ذلك أن الميت يعرف نفسه قبل خروجه من بيته أهو من أهل الجنة أم من أهل النار؟
قال رسول الله- صلى الله عليه وعلى آله وسلم-: «يسمع ذلك كل شيء من مخلوقات الله- تعالى- إلا الإنسان ولو سمعه لصعق».
أي: أغمى عليه، أو مات من شدة هول ما يسمعه، نسأل الله- تعالى- أن يجعلنا ممن يقول: قدّموني، قدّموني. آمين.

الحديث الرابع عشر

عن ابن عمر- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله- ﷺ-: «إن أحكم إذا مات عُرض عليه مقعده بالغداة والعشي: إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار... فيقال: هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة» [متفق عليه].

في هذا الحديث دليل على أن الميت له إدراك قوي وهو في قبره حتى إنه ليرى المؤمن مقعده في الجنة، ويرى الكافر مقعده في النار.

وهذا الحديث يؤيد عرض الأعمال على النبي ﷺ الذي أخرجه البزار بسند رجاله رجال الصحيح عن ابن مسعود رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «حياتي خير لكم تحدثون ويحدث لكم، فإذا أنا مت كانت وفاتي خيرًا لكم تعرض عليّ أعمالكم فإن رأيت خيرًا حمدت الله، وإن رأيت شرًّا استغفرت لكم».

وهو حديث مرفوع، وله طريق آخر مرسل عن بكر بن عبد الله المزني وغيره.

وأما عرض الأعمال على الأقارب فأخرج الإمام أحمد والحكيم الترمذي في نوادر الأصول وابن منده أن رسول الله ﷺ قال: «إن أعمالكم تُعرض على أقاربكم وعشائركم من الأموات، فإن رأوا خيرًا استبشروا به، وإن كان- أي المرئي- غير ذلك قالوا: «اللهم لا تمتهم حتى تهديهم كما هديتنا» وفي رواية عن الطيالسي عن جابر بن عبد الله: «وإن كان غير ذلك قالوا: اللهم ألهمهم أن يعملوا بطاعتك» وأخرج الحكيم الترمذي في نوادره أيضًا من حديث عبد الغفور بن عبد العزيز عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «تُعرض الأعمال يوم الاثنين ويوم الخميس على الله وتُعرض على الأنبياء وعلى الآباء والأمهات يوم الجمعة فيفرحون بحسناتهم وتزداد وجوههم بياضًا وإشراقًا فاتقوا الله ولا تؤذوا موتاكم».

أما عرض الأعمال على الأجانب فأخرج ابن المبارك وابن أبي الدنيا عن أبي أيوب قال: «تُعرض أعمالكم على الموتى فإن رأوا حسنًا استبشروا، وإن رأوا سوءًا قالوا: اللهم راجع بهم».

الحديث الخامس عشر

أخبرنا عبد الرزاق عن معمر قال: أخبرنا عطاء الخرساني قال: حدثني عبد الله بن بريدة عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «إني كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإنها تذكر الآخرة» [وفي الحديث أيضًا: عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «إني نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإن فيها عبرة» [رواه أحمد].

هذا هو الحديث الناسخ الذي نسخ جميع النهي السابق عن زيارة القبور للنساء والرجال.

فقول النبي ﷺ (فزوروها) أمر منه بزيارة قبور جميع المسلمين رجالاً وإناثًا سواء كانت قريبة أم بعيدة، والأمر منه ﷺ للسنة.

ومن هذا الحديث أجمع المسلمون على أن زيارة قبور المسلمين سنة للرجال والنساء.

وعن زيد بن ثابت- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله- ﷺ-: «زوروا القبور ولا تقولوا هُجرا» [رواه الطبراني في الصغير]، وفي رواية أبي سعيد الخدري: «ولا تقولوا ما يسخط الرب» [رواه البزار].

الحديث السادس عشر

أخبرنا عبد الرزاق قال: أخبرنا ابن جريج قال: أخبرنا ابن أبي مليكة أن النبي ﷺ قال: «ائتوا موتاكم فسلموا عليهم وصلوا عليهم فإن لكم فيهم عبرة».

هذا الحديث فيه أمر بزيارة القبور، مؤيدًا ومقويًا للحديث الأول الآمر بالزيارة، والحديث الأول جاء مقرونًا بفوائد تحصل بسبب الزيارة للأحياء وهي أنها تذكر الآخرة وتذرف العين، وفي رواية (وتزهد في الدنيا) وفي هذا الحديث بيَّن ﷺ أن في زيارة القبور عبرة وعظة وتذكارًا للأحياء، ثم أمر ﷺ بالسلام عليهم؛ لأنهم يسمعون السلام ويردون على ما سلم عليهم، وأمر بالدعاء لهم؛ لأن الأموات ينتفعون بدعاء الأحياء لهم، وهذا قد ثبت بالقرآن العظيم، قال تعالى: (وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالأِيمَانِ) (الحشر: من الآية 10) وفي السنة أحاديث كثيرة، منها هذا الحديث،ومعنى (وصلوا عليهم) أي ادعوا لهم، وفي سنن ابن ماجه عن عائشة رضي الله عنها أن رسولا لله ﷺ رخص في زيارة القبور.

الحديث السابع عشر

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي- ﷺ- قال: «يس لما قرئت له، فاقرءوها على موتاكم» [أخرجه الطبراني وذكره صاحب منتقى الأخبار].

هذا حديث صحيح ونص في الأمر بقراءة سورة يس- وهي من سور القرآن- على الموتى، وإذا جازت قراءة يس جاز غيرها قياسًا عليها.

وقد اختار هذا الرأي الشيخ الشوكاني في كتابه (نيل الأوطار) عند شرحه لهذا الحديث، وردّ على الشيخ محب الدين الطبري- رحمه الله- في قوله: على المحتضرين. بأن الحديث يقول: (على موتاكم) وهذه هي الحقيقة، والميت غير المحتضر، فلم صرفت اللفظ عن حقيقته إلى مجازه من غيره قرينة؟

وإني راض عن قول الشوكاني غاية الرضا لأنه الواقع والمعلوم من الحديث، والذي عليه عمل الناس سلفًا وخلفًا. وفقني الله وإياكم إلى اتباع السنة الصريحة الصحيحة حبًا في رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

الحديث الثامن عشر

عن ابن عباس رضي الله عنهما: «أن رجلاً قال: يا رسول الله إن أمي توفيت أفينفعها إن تصدقت عليها، قال ﷺ: نعم، قال: فإن لي مخرفًا فأشهدك أني قد تصدقت به عنها» [أخرجه الحافظ أبو عيسى الترمذي رحمه الله في سننه].

قال الحافظ السيوطي رحمه الله: اختلف في وصول ثواب القرآن للميت، فجمهور السلف والأئمة الثلاثة على الوصول، وخالف في ذلك إمامنا الشافعي وبعض العلماء قوله تعالى: (وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى) (النجم: 39) واستدلوا على الوصول بالقياس على الدعاء والصدقة والصوم والحج والعتق فإنه لا فرق في نقل الثواب بين أن يكون عن حج أو صدقة أو وقف أو دعاء أو قراءة، وبما أخرجه السمرقندي في فضائل (قل هو الله أحد) عن عليّ مرفوعًا: «من مرّ على المقابر وقرأ (قل هو الله أحد) إحدى عشرة مرة ثم وهب أجره للموات أُعطي من الأجر بعدد الأموات» وبما أخرج أبو القاسم سعد بن علي الزنجاني في فوائده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من دخل المقابر ثم قرأ فاتحة الكتاب وقل هو الله أحد وألهاكم التكاثر ثم

قال: إني جعلت ثواب ما قرأت من كلامك لأهل المقابر من المؤمنين والمؤمنات كانوا شفعاء له إلى الله تعالى) وبما أخرج صاحب الخلاف بسنده عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «من دخل المقابر فقرأ سورة يس خفف الله عنهم وكانت له بعدد من فيها حسنات».
وهذه الأحاديث وإن كانت ضعيفة فمجموعها يدل على أن لذلك أصلاً، وأن المسلمين ما زالوا في كل مصر وعصر يختمون ويقرءون لموتاهم من غير نكير فكان ذلك إجماعًا.
قال الأحوذي شارح الترمذي: ذكر ذلك كله الحافظ شمس الدين بن عبد الواحد المقدسي الحنبلي في جزء ألّفه في المسألة.
قال الشوكاني- رحمه الله- في نيل الأوطار: والحق أنه يخصص عموم الآية (وأن ليس للإنسان إلا ما سعى) بالصدقة من الولد، وبالحج من الولد ومن غير الولد أيضًا، وبالعتق من الولد، لما ورد في هذا كله من الحديث، وبالصلاة من الولد أيضًا لما روى الدارقطني «أن رجلاً قال يا رسول الله: إنه كان لي أبوان أبرهما في حال حياتهما كف لي ببرهما بعد موتهما؟ فقال ﷺ: إن من البر بعد البر أن تصلي لهما مع صلواتك، وأن تصوم لهما مع صيامك».
قال الشوكاني: وبالصيام لهما من الولد لهذا الحديث، ولحديث ابن عباس عند البخاري ومسلم «أن امرأة قالت: يا رسول الله إن أمي ماتت وعليها صوم نذر، فقال ﷺ: أرأيت لو كان على أمك دين فقضيته أكان يؤدى ذلك عنها؟ قالت: نعم. قال: فصومي) ومن غير الولد لحديث عائشة رضي الله عنها عن رسول الله ﷺ قال: «من مات وعليه صيام صام عنه وليه» وبقراءة يس من الولد وغيره لحديث «اقرءوا على موتاكم يس» قال: وبالدعاء من الولد وغيره لحديث: «أو ولد يدعو له» ولحديث: «استغفروا لأخيكم وسلوا له التثبيت» ولغير ذلك من الأحاديث، وبجميع ما يفعله الولد لوالديه من أعمال البر لحديث: (ولد الإنسان من سعيه) وقد قيل: إنه يقاس على هذه المواضع التي وردت بها الأدلة غيرها فيلحق الميت كل شيء فعله غيره. هذا تلخيص ما قاله الشوكاني في نيل الأوطار. انتهى من شرح الأحوذي على الترمذي.

الحديث التاسع عشر

عن أبي هريرة- رضي الله عنه- أن النبي- ﷺ- قال: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية أو علم يُنتفع به أو ولد صالح يدعو له» [أخرجه البخاري ومسلم].

المعنى: إذا مات ابن آدم انقطع عمله له ولغيره بسبب الموت، وإذا كان حيًّا لا ينقطع عمله له ولغيره بسبب الحياة.

وفيه دليل على أن الميّت ينتفع بعمل الحي؛ لأن منطوقه يقول: إذا مات ابن آدم انقطع عمله من صلاة وحج وصيام وصدقات بسبب موته، ومفهومه يقول: وأما عمل الحي إلى الميت فلا ينقطع؛ لأن الحي له عمل.

وأول عمل ينتفع به الميت صلاة الجنازة، فقد صلى النبي- ﷺ- على من مات، وأخرج البخاري في صحيحه: (باب قراءة الفاتحة في صلاة الجنازة على الميّت) وأخذ به الإمام الشافعي رضي الله عنه عملاً بهذا الحديث، فعند الشافعية يقرءون الفاتحة بعد التكبيرة الأولى من صلاة الجنازة، وصلاة الجنازة بمنزلة الزاد للمسافر.

وإذا كان الميت ينتفع بقراءة الفاتحة وهي أم القرآن فمن باب أولى أن ينتفع بباقي سور القرآن، وبعض الناس يقول: إن القرآن لا يصل إلى الميت، وقد ألهمني الله تعالى أن هذه الجملة لها معنيان:

المعنى الأول: أن القرآن لا يصل إلى الميت آياته وسوره، وإنما يصعد إلى السماء، قال تعالى: (إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ) (فاطر: من الآية 10) وقال ﷺ: «إذا قرئ القرآن فتحت أبواب السماء» [أخرجه الحافظ السيوطي رحمه الله].

المعنى الثاني: أن ثواب القراءة هو الذي يصل إلى الميت حسنات عظيمة كثيرة، قال ﷺ: «قارئ القرآن له بكل حرف عشر حسنات، لا أقول ألم حرف ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف» يعني أن من قرأ: (الم) له ثلاثون حسنة تصل إلى الميّت إذا وهب القارئ ثوابها له.

وقد أجمع العلماء سلفًا وخلفًا على وصول ثواب الصدقات للأموات، وهذا كلام ظاهر، لأن الصدقة لا تصل إلى الميت بل تصل إلى الفقير فينتفع بها، والحسنة بعشر أمثالها، فمثلاً إذا تصدقت على فقير برغيف على ميت من الأموات فالفقير يصله رغيف واحد، والميت يصله ثواب عشرة إلى سبعمائة ضعف على حسب تضعيف الله تعالى، قال تعالى: (وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ) (البقرة: من الآية261).

وقد سمعت شيخنا الشنقيطي- رحمه الله- يقول: يصل ثواب قراءة القرآن للميت ذا وهبه القارئ له بأن يقول قبل القراءة: اللهم أوصل ثواب ما سأقرؤه لفلان، قبل القراءة وهو الأفضل، ويجوز بعدها.

فمن ذلك علمنا أن الميت ينتفع بعمل الأحياء، وأما عمله هو فقد انقطع بسبب الموت، أما العمل الذي تسبب فيه في وقت حياته فإنه لا ينقطع عنه كالصدقة الجارية، والعلم الذي ألّفه، والولد الصالح الذي خلفه يدعو له من بعده.

الحديث العشـرون

عن أبي هريرة- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: (إن المؤمن ليرفع له الدرجة في الجنة فيقول: يا رب بم هذا؟ فيقال له: بدعاء ولدك من بعدك).

هذا دليل خاص على انتفاع الوالد بدعاء ولده، بعد الدليل العام وهو قوله تعالى: (رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ) (الحشر: من الآية10)

الحديث الحادي والعشرون

عن أبي هريرة – رضي الله عنه – أن النبي – ﷺ – قال:
«ما من يوم يصبح العباد فيه إلا وملكان ينزلان، فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقاً خلفاً، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكاً تلفاً».
أخرجه البخاري ومسلم والنسائي والإمام أحمد- من حديث أبي الدرداء وابن حبان في صحيحه والحاكم- وصححه – والبيهقي، وقد نظمت ذلك – بفضل الله تعالى – فقلت:

والملكان ينزلان يافتى ... في كل يوم يدعوان قد أتي
عن النبي صادق الأخبار ... في مسلم كذاك في البخاري
وفي النسائي كذا في المسند ... عن الإمام أحمد المؤيد
والبيهقي والإمام الحاكم ... وابن حبان لهم مكارم

قوله – ﷺ – (ما من يوم) أي: ليس يوم، فـ (ما) بمعنى ليس، و (يوم) اسمها، وقوله: (يصبح العباد فيه) صفة ليوم، (إلا ملكان) مستثني....
الإنفاق: هو إعطاء المال في سبيل الله، والتلف هو: ضياع المال، والخلف: هو العوض..
يخبرنا النبي – ﷺ – بأنه في كل يوم يدعو الملك بالخير لكل متصدق، ويدعو بالشر على كل ممسك عن الإنفاق، ففي الحديث حض على الإنفاق، وتنفير عن البخل..
قال القرطبي – رحمه الله -:«الإنفاق يعم الواجبات والمندوبات لكن الممسك عن المندوبات لا يستحق الدعاء بالتلف»..
قال الأبي المالكي شارح صحيح مسلم نقلاً عن القاضي عياض المالكي – رحمهما الله -: «في هذا الحديث: الحض على الإنفاق رجاء قبول دعوة الملك والمراد بالنفقه: في الواجب والمندوب؛ لأن في المال حقوقاً متعينة، ويعم النفقة في المندوب، لكن بالمعروف» قال الأبي: «وأما الإمساك فالأظهر أنه أراد به الإمساك عن الواجب» أ هـ.
قلت: النفقة أقسام ثلاثة:
واجب: كالزكاة المفروضة، ونفقة الحج، والنفقة على الزوجة، والأولاد، وعلى الوالدين، وعلى عاجز تلزمه نفته شرعاً، وعلى إنقاذ من إذا لم تنفق عليه هلك، وفي الجهاد إذا دخل العدو البلد، وعلى تعلم الواجب العيني إذا لم يمكن إلا بالإنفاق، وعلى ميت تعين تكفينه وأجة دفنه على حاضر ببلد كفر مات فيه مسلم، وغير ذلك مما قامت أدلة الشرع على وجوبه، والمندوب: كالتصدق على الفقراء والمسكين في غير زكاة واجبة.
والمباح: كالولائم، وكأكله وشربه وغير ذلك.
ولما كان يثاب شرعاً على الواجب إذا أنفق فيه دعا له الملك، ولما كان يأثم شرعاً إذا تركه دعا عليه بالتلف، ولما كان لا يأثم بترك المندوب والمباح لا يدعو عليه الملك بالتلف، ولما كان يثاب بالإنفاق المندوب يدخل في دعاء الملك بالعوض.
والظاهر لي: أن كل ما كان فيه ثواب يدخل في دعاء الملك بالخير، وكل ما كان فيه عقاب يدخل في دعاء الملك بالشر، وما عقاب في تركه، ولا ثواب في فعله لا يدخل، كترك المندوب، وفعل المباح.
فوائد:
الأولى: أن الله – تعالى – لحبه للإنفاق، ولبغضه لهضم الحقوق الواجبة أنزل كل يوم ملكاً للدعاء بالخير لمن أنفق، وللدعاء بالشر على من أمسك .
والثانية: أن الذي ينفق يبارك الله له في ماله، ويزيده من فضلن؛ لأن دعاء الملك مستجاب بالخير لكل منفق كريم، وبالشر على كل ممسك بخيل.

والثالثة: أن تارك الإنفاق الواجب لا يبارك في كسبه، وكلما ظن أنه زاد نقص، وكلما ظن أنه حفظ تلف؛ لأن دعوة الملك عليه بالتلف مستجابة.
والرابعة: أن هذا الحدث وافق قوله – تبارك وتعالى -:
(وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ)(سبأ: من الآية39)
فعلى المؤمن أن يعتقد بقلبه اعتقاداً جازماً بأن الله – عز وجل – يعوضه في الدنيا عما أنفق.
والخامسة: في هذا الحديث ما يدل على عظيم فضل الله – تعالى- على خلقه حيث عوض على المنفق في الدنيا، وأثابه يوم القيامة الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبعمائة ضعف، ففي الإنفاق ثوابان، كما أن قائم الليل يثاب على قيامه في الآخرة بالجنة، ويثاب عليه في الدنيا بالعافية في جسمه بطرد البلاء عنه.
والسادسة: أن الله – تعالى – جعل يد المنفق هي العليا:
قال النبي ﷺ – «اليد العليا خير من اليد السفلي» [رواه مسلم والترمذي] فإذا بخل صارت يده أقل من السفلى؛ لأن المعطى يده عليا لأنه منفق ممتثل لأمر ربه، والآخذ يده سفلي وهو شاكر نعمة ربه، والبخيل الممسك متجرد عنهما.
والسابعة: أن المتفق تخلق بأخلاق الله – تعالى -:
قال النبي – ﷺ – «تخلقوا بأخلاق الله» والمنفق تخلق أيضاً بأخلاقه – ﷺ – فقد كان أكرم من الريح المرسلة.
فالله – تعالى – منفق كريم، وأمر بالإنفاق، وهو يحب الإنفاق، والنبي – ﷺ –كريم يحب الإنفاق وأمر به، فالمنفق حبيب الله – تعالى- وحبيب رسول الله – ﷺ – .
والثامنة: أن الممسك تخلق بأخلاق إبليس؛ لأنه بخيل ويأمر بالبخل، قال الله - تعالى – (الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ)(البقرة: من الآية 268) أي: إذا أردتم الإنفاق في سبيل الله خوفكم بالفقر، وأمركم بالإمساك، فالممسك عن الإنفاق حبيب الشيطان، عدو الرحمن.
فعليك يا أخانا في الله – تعلى – بكثرة الإنفاق في مشاهدة الخلاق من أنفاسك العزيزة، وبكثرة الأذكار وإبلاغ الحكم من كلماتك المفيدة.. واعلم أنك كلما أنفقت من علمك زادك الله منه:
سئل سيدنا على – رضي الله عنه وكرم الله وجهه-: العلم أفضل أم المال؟
فقال: العلم. قيل لم؟ قال: لأن المال ينقص بالإنفاق، والعلم يزيد به.
واعلم أن خزائن ذخائرك زاخرة: أذنان تسمعان، وعينان تبصران، ويدان تبطشان، ورجلان تمشيان، ولسان ناطق وعقل مفكر. فأنفق من سمعك في سماع حسن القول.
قال – تعالى-: (الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ)(الزمر: من الآية 18) وانظر بعينك في ملكوت السموات والأرض:
قال الله – تعالى -: (أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ) (قّ:6) . وقال – تعالى: (مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ)(الملك: من الآية3).
ويداك: أنفق منهما مساعدة الضعيف وإعانته، ورجلان بالمشي إلى المساجد، لا سيما في الظلمات، ولسانك بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتعليم المسلمين، وعقلك بالتفكر في مخلوقات الله، قال تعالى: (وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ)(آل عمران: من الآية 191) فمن أنفق من جوارحه خيراً أنزل الله عليه خيراً، وثواب الآخرة أعظم، ومن أنفق من جوارحه شراً لقي شراً في الدنيا، (وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى)(طـه: من الآية127) .
واعلم أنك لا تصل إلى ما وصل إليه المجدون حتى تجعل جميع جوارحك مصادر خير محض، لا شية فيها من جميع الوجوه، وتلازم المراقبة لله – تعالى – وتؤدب نفسك، وتنمي روحك، ولا أرى لك إصلاحاً أسرع من هذا.

فعليك يا أخانا – وفقك الله – بالإصغاء إلى قولي هذا، فعن قريب ترى عجائب الروح منك بك حيث لا حجاب يحجبك، ولا شاغل يشغلك، وبمشاهدتك للحق تعالى مشاهدة خارجاً بها عن جميع المحسوسات والمعقولات، نافياً مثبتاً، متصلاً منفصلاً، فانياً باقياً، وهناك تذوق حلاوة الإيمان التي عبر عنها المعبرون والناظمون، فمنهم من قال:

غرقت في بحر الحب .....

ومنهم من قال:

شربنا على ذكر الحبيب .....

ومنهم من قال:

أشاهد معنى حسنكم فيلذ لي...

فمن دخل البحر وانغمس فيه قال: غرقت، وترجم لسانه عن حالة حتى قال:

(وأوقفني وراء بلا حجاب عند اسمك المحيط في مقام السماع العام، حتى تطربني لذة المكالمة الإلهية...). ومن شرب قال: سكرنا، ومن شاهد الحسن، قال: تلذذنا بمشاهدة الحسن، وقد اتحدت الوجهة، واختلفت الواردات على وفق الاستعدادات.

فهيئ روحك بالتمسك بالكتاب والسنة حتى تكون على القدم المحمدي الراسخ حاضراً غائباً.

نقل الغزالي – رحمه الله – عن سيدنا على – كرم الله وجهه -: إن لله رجالاً هم الناس بأجسامهم وقلوبهم معلقة بالملأ الأعلى.

وأراك – إن شاء الله – بذلك تكون داخلاً في حزب القائل:

ولقد جعلتك في الفؤاد محدثي ∴ وأبحت جسمي من أراد جلوسي
فالجسم مني للجليس مؤانس ∴ وحبيب قلبي في الفؤاد أنيسي

والقائل:

جمالك في عيني وذكرك في فمي وحبك في قلبي فأين تغيب

والقائل:

إن شمس النهار تغرب بالليـ ـل وشمس القلوب ليست تغيب

والقائل:

لئن لم أحج البيت قد شط ربعه حججت إلى من لا يغيب عن السر
ومن رام نفراً بعد حج فإنني مقيم على نسكي حياتي بلا فنر

والقائل:

ومن عجب أني أحن إليهم وأسأل شوقاً عنهم وهم معي
وتبكي لهم عيني وهم في سوادها ويشكو النوى قلبي وهم بين أضلعي
وعند ذلك تكون صائماً، محباً هائماً، مجداً مستعداً، مهيئاً للقاء

رب كريم، مغتنماً الفرص، معمراً الفراغ بما يجدى نفعاً، فاراً من كل ما يقطعك عن الله قطعاً، مستعداً للقاء الباري، مردداً لكلمات البخاري.

اغتنم في الفراغ فضل ركوع ∴ فعسى أن يكون موتك بغتة
كم صحيح من غير سقم رأينا ∴ ذهبت نفسه الشريفة فلته

وقول الناظم:

تهيأ للذي لابد منه ∴ فإن الموت ميقات العباد
أترضي أن تكون رفيق قوم ∴ لهم زاد وأنت بغير زاد

فمت قبل أن تموت ليسهل عليك الموت، وأخل قبل أن تفرد فتصعب عليك العزلة، واترك الأنس بالناس لابه خشية أن يشق عليك فراقهم.
وشاهد قبرك قبل أن تدخله لئلا تستوحش منه، وفي هذا القدر كفاية لمن لاحظتهم عين العناية.
قال الناظم:

وإذا العناية لاحظتك عيونها ∴ نم فالمخاوف كلهن أمان
واصطدبها العنقاء فهي حبائل ∴ واركب بها الجوزاء فهي عنان

قال النووي رحمه الله نقلاً عن غيره: السعادة قبل الولادة، والعناية قبل الولاية.
هذا وأسأل الله لي ولك صلاح الحال وبلوغ الآمال. آمين.

الحديث الثاني والعشرون

قال رسول الله – ﷺ -: «ما من مسلم يغرس غرساً، أو يزرع زرعاً فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة» [رواه البخاري عن أنس رضي الله عنه].

قال شارح صحيح البخاري الشيخ القسطلاني – رحمه الله -:

«قوله – ﷺ -: [ما من مسلم يغرس غرساً] بمعنى المغروس أي:شجراً».

قلت: فيكون من باب إطلاق المصدر وإرادة اسم المفعول، فهو مجاز مرسل كما في قوله – تعالى-: (هَذَا خَلْقُ اللَّهِ) (لقمان: من الآية11) .

أي: مخلوق الله؛ لأن المصدر حدث، والحدث لا يُرى، وإنما ترى الذات التي قام بها الحدث، فهو أحد مدلولي الفعل...

قال ابن مالك – رحمه الله -:

المصدر اسم ما سوى الزمان من مدلولي الفعل كأمن من أمن

وهو شيبة بالروح في أنها لات ترى، وإنما يرى مكانها، وذلك لحكمة لطيفة؛ لأن الروح من أمر الله، وأمر الله لا يرى، والجسم من خلق الله، وخلق الله يرى، ولأن الروح تذكرك الغيب فهي من عالمه، والجسم يذكرك الشهادة فهو من عالمها..

فكلما أيقنت بانفعالات روحك وآثارها مع عدم رؤيتك لها آمن بأفعال الملائكة مع عدم رؤيتك لهم، فإذا علمت ذلك وأيقنت به فاعلم أن الرب الأجل من الغيب، وهو خالق كل شيء، ولا يرى بل ترى أفعاله؛ لأنك لو رأيته لتساوى مع خلقه، وهو ليس كمثله شيء، فعينك الحادثة ترى الحوادث ولا ترى القديم الأزلي؛ إذ لو رأيته لكتب لك البقاء السرمدى، ولا يفني جسمك بعد.

ولما كتب الله الفناء على العوالم العلوية والسفلية حجب عنها، فأهل السماء بالنسبة إلى النظر للحق – جل وعلا – كأهل الأرض.

قال – ﷺ – «لا تفضلوني على يونس بن متى»

يعنى: حينما كنت فوق السماء السابعة، فإن علم ربي وإحاطته بي وسماعه لكلامي، كعلمه وإحاطته وسماعه ليونس في ظلمات ثلاث: ظلمة الليل، وظلمة البحر، وظلمة بطن الحوت.

قال القسطلاني – رحمه الله -: قوله – ﷺ -: «أو يزرع زرعاً» أي: مزروعاً، فأو للتنويع؛ لأن الزرع غير الغرس».

قلت: القول في الزرع كالقول في الغرس، وهناك غرس وزرع آخران، فيغرس المؤمن ذرية طيبة تنفعه في الدنيا ولاآخرة، كما في الحديث «أو ولد صالح يدعو له» [رواه البخاري ومسلم]

ويزرع الأعمال الصالحة المتنوعة التي أرضها صفحات القلوب، وماؤها من سماء الغيوب، وزرعها فعل الواجبات وترك المنهيات، ورضاء بالقضاء، وجهاد للنفس، وشكر وصبر لدى البأساء والضراء وحين البأس، فهنيئاً لأرض القلوب القيعان، حينما هطل عليها غيث وابل معاني القرى، فاهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج، فشمرت النفس عن ساعد جدها للوصول إلى مجدها، ونظرت إلى اللذات نظر المشريب، وفرت من غوائل الدنيا فرارها من الغول، واشتغلت بربها بعد أن شغفها حب جنته، وشغفها حب كرامته، فصبرت بجسمها لحكم ربها حتى جاءها اليوم الموعود، فسمعت النداء بعد التسليم والبشرى: (أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً) (الفجر: 27 ، 28)

قال القسطلاني – رحمه الله -: قوله – ﷺ – «فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة».

«صدقة»: بالرفع اسم كان، والتعبير بالمسلم يخرج الكافر، فيختص الثواب في الآخرة بالمسلم دون الكافر؛ لأن القرب إنما تصح من المسلم، فإن تصدق الكافر أو فعل شيئاً من وجوه البر لم يكن له أجر في الآخرة.

نعم! إن مأكل من زرع الكافر يثاب عليه في الدنيا كما ثبت دليله، وأما قول من قال:/ يخفف عنه بذلك من عذاب الآخرة فيحتاج إلى دليل.
وفي الحديث الذي رواه مسلم عن عائشة – رضي الله عنها-:
«قلت: يا رسول الله: ابن جدعان – في الداهية – كان يصل الرحم، ويطعم المسكين، فهل ذلك نافعه؟ قال: لا ينفعه إنه لم يقل يوماً: رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين».
يعني: لم يصدق بالبعث، ومن لم يصدق به فهو كافر ولا ينفعه عمل، ونقل عياض – رحمه الله- الإجماع على أن الكفار لا تنفعهم أعمالهم ولا يثابون عليها بنعيم ولا تخفيف عذاب، لكن بعضهم أشد عذاباً من بعض بحسب جرائمهم.
وأما حديث أبي أيوب الأنصاري الذي رواه الإمام الإمام أحمد مرفوعاً:
«ما من رجل يغرس غرساً» ، وحديث: «ما من عبد» فظاهرهما يتناول المسلم والكافر، لكن يحمل المطلق على المقيد.
والمراد بالمسلم: الجنس، فتدخل فيه: المرأة المسلمة.
وقد روي مسلم- رحمه الله- هذا الحديث بزيادة فيه، فأردت ذكرها لزيادة الفائدة، فأقول بعون الله:
عن جابر بن عبد الله الأنصاري – رضي الله عنه – قال: قاتل رسول الله – صلى الله عليه ,وآله وسلم -: «ما من مسلم يغرس غرساً إلا كان ما أكل منه له صدقة، وما سرق منه له صدقة، وما أكل السبع منه فهو له صدقة، وما أكلت الطير فهو له صدقة، ولا يرؤزه أحد إ’لا كان له صدقة».
قال الإمام النووي – رحمه الله تعالى – في شرحه لصحيح مسلم: «في هذه الأحاديث فضيلة الغرس، وفضيلة الزرع، وأن أجر فاعل ذلك مستمر ما دام الغرس والزرع وما تولد منه إلى يوم القيامة، وقد اختلف العلماء في أطيب المكاسب وأفضلها فقيل: التجارة، وقيل الصنعة باليد، وقيل: الزراعة وهو الصحيح، والثواب مختص في الآخرة بالمسلمين» أ هـ.
قلت: قد اجتمعت في هذا الحديث فوائد شتى للغارس والزارع:
الأولى: أن ما عنده إذا بلغ النصاب أخرج زكاته، فيثاب عليه ثواب الواجب.
والثانية: أنه يتصدق منه تطوعاً، فيثاب عليه ثواب صدقة التطوع. فهذان ثوابان يختلفان بالنية.
والثالثة: أنه إذا قدم شيئاً من التمر والحب إلى والديه أثب ثواب الواجب، وكتب باراً بوالديه، أو قدمه إلى ذوي أرحامه، كتب وصولاً للرحم.
والرابعة: إذا قدم شيئاً إلى زوجته وأولاده، أثيب عليه ثواب الواجب.
والخامسة: إذ وهب شيئاً، كتب له ثواب الهبة.
والسادسة: إذا أهدى شيئاً كتب له ثواب الهدية، وكان عاملاً بحديثه – صلى الله عليه ,وآله وسلم – «تهادوا تحاربوا». [الحديث رواه مالك في الموطأ وهو قوله – صلى الله عليه ,وآله وسلم - : «تصافحوا يذهب الغل، وتهادوا تحابوا وتذهب الشحناء].
والسابعة: إذا أقرض إنساناً شيئاً كتب له ثواب القرض ثمانية عشر مثلاً، وهذه السبعة يمكنه أن ينوى فيها الثواب.
والثامنة: أن ثواب ما أكل الطير والحيوان والسباع والسارق، وما يغلبه فيه الشركاء وغيرهم، وهذه الأشياء يثاب عليها من غير نية.
والتاسعة: وهي الفائدة الكبرى: أن مكان الغرس لا يخلو من الظل البارد، والماء البارد، والرطب والتمر، فما استظل فيه بظل الغرس، وأكل من التمر، وشرب من الماء، كتب للغارس ثواب ذلك كله، وقيل: هذا هو نعيم الدنيا.
(فائدة) قال الشيخ عبد السلام – رحمه الله – في شرحه على الجوهرة في علم التوحيد:
«الفرق بين الحكمة والعلة: أن الحكمة ليست علة في الفعل، ومثل ذلك الظل للشجر، فإن الغارس لم يجعله علة للغرس، وإنما جاء عفواً بعد ظهور الشجر، وأما العلة فتكون باعثة على الفعل، كالماء

فإنه علة في حفر البئر.
قال تعالى: (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْأِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) (الذريات:56)
أي: ليكون مصيرهم إلى العبادة، وهي لم تكن علة في خلقهم؛ لأن أفعاله- تعالى – منزهة عن العلل» أ هـ.
فعليك يا أخانا في الله – تعالى – بغرس أشجار المحبة الإلهية في أرض قلبك، من قوله – تعالى (يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ)(المائدة: من الآية54)
وأسقها بماء المجاهدة من قوله – تعالى-: (وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ)(الحج: من الآية 78) حتى تثمر ثمر اليقين ثم يرتقي إلى علم اليقين، ثم يرتقي إلى عين اليقين، وهناك ترى ما لا يراه الناظرون وتسمع مالا يسمعه السامعون، في حضرة:

(كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ولسانه الذي ينطق به) (1) . فلا يصل شئ من ثمر جواهر حديثك إلي مخلوق إلا كان لك به صدقة، سواء سمعه أو قرأه، أو نقله الغير منك إليه، ويدوم لك ذلك إلي يوم القيامة، فلا ينقطع أجرك وأنت في قبرك، وبذلك تدخل في ميدان حظيرة:
(العلماء ورثة الأنبياء) (2) إذ الأنبياء لا تنقطع أجورهم بعد الموت، فتكسى ثوب الوراثة النبوية، الذي به تكون على الكتاب والسنة، مكمَّلاً كمالاً إليًا محمديا، منفصلا متصلاً، مستغرقًا في مشاهدة الواسطة العظمى والحجاب الأعظم، ظاهرًا وباطنًا، يقظة ومنامًا، في جميع أحوالك وأقوالك، ممتدًا ممدًا من الذي انشقت منه الأسرار، وانفلقت الأنوار، كاشفًا عن أسرار الجمل والكلمات، بالسر الساري في جميع الأسماء والصفات، حيث لا جمع ولا فرق، بل حبّ وشوق، ذاكرًا له في حضرة الإطلاق؛ إذ لا حضرة إلا وفيها من ليس معه لباب إغلاق، فمنهم من أخذته الدهشة فنسى، ومنهم من تقوَّتْ روحه فشاهد في حضرة الله وعند ذكر الله حبيب الله، تاليًا قوله تعالي: (إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله) (الفتح من الآية 10) وإني لأرجو أن يكون لك الحظ الوافر من هذا البحر الزاخر..

الحديث الثالث والعشرون

عن عدى بن حاتم – رضى الله تعالى عنه – قال: قال رسول الله – ﷺ: «اتقوا النار ولو بشق تمرة، فإن لم تجد فبكلمة طيبة» متفق عليه.

(اتقوا): من الوقاية أي: اجعلوا وقاية بينكم وبين النار يوم القيامة بالصدقة، فقد ورد الحديث عن النبي – ﷺ – أنه قال: «إن الصدقة لتطفئ غضب الرب» [رواه الترمذي وابن حبان عن أنس رضي الله عنه].

ولا يستصغر الإنسان صدقة؛ لأن الله – تعالى – يقبل الصغير والكبيرة ويكافئ عليها، قال – تعالى – (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ) (الزلزلة:7) .

(ولو بشق تمرة): مبالغة في الدلالة على القليل، أي: ولو كانت الصدقة قليلة على قدر ونصف تمرة.

وفي الحديث حث على فعل الصدقة، وأن الإنسان لا يحتقر صدقة قدمها لله – تعالى- وقد جاء في القرآن الكريم أن الله – تعالى – يضاعف الحسنة مهما كانت.

قال تعالى: (وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا)(النساء: من الآية 40) أي: ينميها عنده، كما يربي الرجل ابن فرسه الصغير..

وفي الحديث: «ما يربي أحدكم فلوة» [جزء من حديث رواه مالك في الموطأ ولفظه من تصدق بصدقة من كسب طيب، ولات يقبل الله إلا طيباً، كان إنما يضعها في كف اتلرحمن، يربيها كما يربي أحدكم فلوه أو فصيلة حتى تكون مثل الجبل].

«فلوه»: أي ابن فرسه الصغير.

روي أن سائلاً سأل أم المؤمنين السيدة عائشة –رضي الله تعالى عنها- فأعطته حبة عنب واحدة، فقال:/ ما هذه يا أماه؟ ! فقالت له: أنظركم فيها من ذرة!! ثم تلت قوله – تبارك وتعالى-: (مَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ) (الزلزلة: 7) ثم قالت للسائل: هذه حبة عنب أعطيتها لك من عنقود عنب احتبسته لإفطار النبي – ﷺ – ففرح السائل لما علم ذلك ثم انصرف.

وقد رأوها – رضي الله تبارك وتعالى عنها – أنها إذا أرادت أن تتصدق بدرهم عطرته بمسك النبي – ﷺ – ثم تعطيه للفقير ... فقيل لها في ذلك، فقالت: سمعت النبي – ﷺ – يقول: «إن الصدقة تقع في كف الرحمن قبل أن تقع في كف الفقير» أو كما قال...

(فإن لم تجد): فيه التفات عن الجماعة إلى الفرد، أي: فإن لم تجد حقيقة أو وجد شيئاً وكان محتاجاً له في النفقة الواجبة كالنفقة على الزوجة والأولاد والوالدين فإنها واجبة، وعلى الفقير مستحبة، ويقدم النفقة الواجبة على المستحبة... أول: والنفقة على هؤلاء يثاب عليها ثواب الفرض، وتكون له بها وقاية من النار، فهي أفضل من الصدقة على الفقير.

(فبكلمة طيبة) الطيبة: هي التي يرضاها الله- تعالى – ويثاب عليها قائلها، وتطيب خاطر سامعها، وقد أمر الله – تعالى- بها، حيث يقول: (وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً)(البقرة: من الآية 83) وفي الحديث: «والكلمة الطيبة صدقة» [رواه البخاري ومسلم والإمام أحمد رضي الله عنهم».

وقد ضرب الله – سبحانه – لنا مثلاً في القرآن الكريم للكلمة الطيبة بقول – عز وجل -:

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ *تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا)(إبراهيم: من الآية: 42 وبعض آية25).

والمراد بالشجرة – هنا -: النخلة، فشبه- سبحانه وتعالى- الكلمة الطيبة بالنخلة؛ لما حوت من المنافع، وشبه الكلمة الخبيثة بالحنظلة لمرارة طعمها ونتن ريحها..

ومولد الكلمة الطيبة أو الخبيثة: اللسان، وقد أمسك رسول الله – ﷺ – بلسانه الشريف، قائلاً لسيدنا معاذ – رضي الله تعالى عنه «ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكب الناس على وجوههم في النار إلا حصائد ألسنتهم» [رواه البخاري].

ففي الحديث:/ الاهتمام بالصدقة وإن كانت صغيرة وأنها تقي النار، والاهتمام بالكلام الطيب وأنه

يقي النار.
وكما يجلب اللسان الحسان العظيمة يجلب الكبائر من الذنوب، وكما يتسبب في رضوان الله- تعالى – يتسبب في غضبه – تعالى-، فأشغل لسانك بما يرضي خالقك فتسلم، ولا تشغله بما يغضبه فتندم!
وفي الحديث: «رحم الله أمرأ سكت فسلم أو تكلم فغنم» [رواه البيهقي في شعب الإيمان عن أنس].
قال شهاب الدين الخفاجي – رحمه الله تعالى-: إذا كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب.
وقال رسول الله – عليه أفضل الصلاة والسلام-:
«كثرة الكلام بغير ذكر الله تقسي القلب، وإن أبعد القلوب من الله تعالى القلب القاسي»
«لا تكثرون الكلام بغير ذكر الله فتقسوا قلوبكم، فإن القلب القاصي بعيد من الله» [رواه مالكم في الموطأ].
وفي شرح رسالة أبي زيد المالكي – رحمه الله تعالى- أن أمير المؤمنين سيدنا عمر بن الخطاب – رضي الله تعالى عنه – دخل على أمير المؤمنين سيدنا أبي بكر الصديق – رضي الله تعالى عنه – فرآه يمد لسانه، فقال عمر:مه يا أبا بكر ! فقال أبو بكر: دعني فإنه أوردني الموارد.
قال أبو زيد المالكي: ورأي بعضهم الصديق- رضي الله تعالى عنه – في النوم بعد موته فقال له: ما أوردك لسانك؟ فقال: أوردته لا غله إلا الله فأوردني الجنة!.
وقد قال بعض الصالحين: جعل الله – سبحانه – للسان بيتين من العظم واللحم، ولكن ما أسرع تفلته إذا أراد أن يتكلم!!.
وقد ذكر بعض شراح الأحاديث: أن رجلاً مر على رأس مقطوعة فنظر إليها، وقال: من قتل هذه ؟ ! فانطلق الله – تعالى – له الرأس فقالت: قتلني لساني، فحمل الرجل الرأس إلى المالك، وقال له: هذه الرأس تتكلم! فحادثها الملك فلم ترد عليه! فقال الرجل: أتهزأ بي ، وأمر بقتله، فلما ذهبوا به للقتل، نطقت الرأس فقالت للملك: ماذا قال لك الرجل؟! فأمر الملك به فأحضر، فقال له: ماذا قالت لك الرأس ؟ قال: قالت لي: قتلني لساني، فقالت الرأس للرجل علي الفور: أفلم تتعظ؟! فعفا الملك عنه وأطلقه! ثم أنشد راوي القصة بعد ذلك:

احفظ لسانك أيها الإنسان ∴ لا يلد غنك إنه ثعبان
كم في المقابر ميت بلسانه ∴ كانت تهاب لقاءه الشجعان

وقال الشاعر:

جراجات السنان لها التئام ∴ ولا يلتام ما جرح اللسان

وفي حفظ اللسان حفظ للإنسان، قال شيخنا الشيخ محمد إبراهيم السمالوطي – رحمه الله تعالى – في شرح حديث «احفظ الله يحفظك» [رواه البخاري والترمذي].
أي: احفظ أعراض الناس من لسانك يحفظ الله عرضك من ألسنتهم.. واستمر ساعة كاملة، وهو يدرس ويشرح في هذا الحديث.

الحديث الرابع والعشرون

عن أبي عامر الأشعري رضي الله عنه أن النبي – ﷺ- قال: «أهل الجنة كل هين لين سهل قريب، وأهل النار كل شديد قبعثري، قالوا وما قبعثرى يا رسول الله؟ قال: الشديد على الأهل، الشديد على الصاحب الشديد على العشيرة». أخرجه الديلمي والشيرازي في الألقاب والسيوطي في جمع الجوامع.

يصف النبي– ﷺ- أهل الجنة بقوله: «هين لين سهل قريب» وذلك بالمؤمنين كما قال تعالى: (رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ)(الفتح: من الآية 29) فالمؤمن من يكون مع أخيه المؤمن هيناً ليس صعباً قاسياً، سهلاً ليس وعراً، قريب الرضا ليس ببعيدة، وفي الحديث: «المؤمن هين ليس سريع الغضب قريب الرضا».

فالمؤمن حقاً يعمل بقوله تعالى: (وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ) (آل عمران: من الآية 134) وبقوله تعالى: (وَيَدْرَأُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ) (الرعد: من الآية22) .

يعني من قدم إليهم سيئة قدموا إليه حسنة، وهذه الصفة من أجل مكارم الأخلاق، وقد وعد الله فاعلها بأن عدوه يكون بعد العداوة ناصراً له محباً حباً عظيماً، فتلك مكافأة معجلة في الدنيا للذين يتصفون بهذه الصفة الكريمة، وقلت بفضل ربي تعالى:

كن هيناً ليناً للخلق تألفهم وألفوك وهذا الوصف محمود

وفي الحديث قال عليه الصلاة والسلام: «المؤمن من يألف ويؤلف، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف» وقال تعالى: (وألف بين قلوبهم) (الأنفال من الآية 63). فالألفة التي بين قلوب المؤمنين منه من أعظم المنن، ونعمة من أجل النعم، إذ بها يحصل التحابب والتعاون والتآزر، فلا يسمح المؤمن بضرر أخيه ومقاطعته واستسلامه لعدوه بل يكون له أخاً، كريماً لا لئيماً، مساعداً لا معاندا، مواصلاً لا مقاطعاً، محققاً قول الحق سبحانه: (فأصبحّتم بنعمتهْ أخواناَ) (آل عمران: 103) . وقد وصف – ﷺ – أهل النار بالشدة على الأهل والصاحب والعشيرة، وفي الحديث: «والمنافق إذا خاصم فجر».

فلا تكن شديداً على أهلك فيبغضوك ولا على أصحابك فيهجروك، ولا على العشيرة فيبدلون العشرة قطيعة لك.

وقد قال الله تعالى: (إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ) (صّ: 64) فوصف الله سبحانه أهل النار بالتخاصم وهم في النار، ووصف أهل الجنة بالإخلاص والأخوة في الجنة فقال سبحانه: (وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَاناً عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ)(الحجر: 47) فأهل النار أهل تباغض وتقاطع في الدنيا والآخرة، وأهل الجنة أهل توادد وتحابب في الدنيا والآخرة، قال عليه الصلاة والسلام: «أهل المعروف في الدنيا هم أهل المعروف في الآخرة».

الحديث الخامس والعشرون

قال رسول الله – ﷺ-: «إن لله ثلاث حرمات فمن حفظهن حفظ الله عليه أمر دينه ودنياه، ومن لم يحفظهن لم يحفظ الله له شيئاً: حرمة الإسلام وحرمتي وحرمة رحمي».

الحرمات: الحقوق

فمعني حرمة الإسلام: أي ما يطلبه الإسلام من المسلم، وهي أمور كثيرة لا يكمل الإسلام إلا بها كقوله – ﷺ- «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده» وكقوله – ﷺ- «المسلم أخو المسلم...» [رواه أبو داود عن سويد بن حنظلة] وكقوله – ﷺ- : «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ....» وكقوله – ﷺ-: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحث الإسلام وحسابهم على الله» [رواه أبو هريرة، وأخرجه البخاري ومسلم وغيرهما] وكقوله تعالى (بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَنْ) (الحجرات: من الآية11)

وبالجملة فمن راعي ما وجب في الإسلام ففعل، وما حرم فترك، فقد عظم حرمة الإسلام، ويدخل في قوله – ﷺ-«احفظ الله يحفظك....» ومن لم يكن كذلك فلم يعظم حرمة الإسلام، وحينئذ فمن أضاع فجزاؤه الضياع، وفي الحديث: «تدعو الصلاة على من أضاع وقتها فتقول: ضيعك الله كما ضيعتني».

وحرمة النبي – ﷺ-حقه الذي أوجبه الله تعالى علينا كطاعته في قوله وفعله واحترامه وتوقيره وتكريمه، والاعتراف بفضله وشفاعته وجاهه ورفع ذكره وعلو درجته، وأنه موصوف منذ خلقه الله تعالى بالزيادة في الإيمان والعلوم والأنوار والدرجات والبركات والأسرار والنفحات والخيرات. وكذلك يكون بعد أن لحق بالرفيق الأعلى أعلى مقاماً وأجل إكراماً وأوسع علماً وإدراكاً وكشفاً وشهوداً وسماعاً ورداً للسلام، ولا يجوز لمؤمن أن يعتقد فيه غير ذلك أو أنه قد مات كموت الخلق، بل أحياه الله تعالى بعد موته بحياة تفوق حياة النبيين والمرسلين عليه وعليهم الصلاة والسلام، وحياة الشهداء، وحياة الملائكة الكرام، وحياة الأحياء من أهل الدنيا، ويجب عليك أن تحبه – صلى الله عليه وآله وسلم- أكثر من نفسك، وأن تصلى وتسلم عليه وأن تزور روضته الشريفة لتحظى برد سلامه – ﷺ- عليك، وتحصل لك بركته – ﷺ- وبركة نظره إليك ودعائه لك، وقلت بفضل ربي تعالى:

يازائرا ذاك الضريح ومن ربه	وأفاك سعد قد حظيت بقربه
سلم عليه وسله خير شفاعة	فهو الشفيع كذا الحبيب لربه
أنت السعيد إذا وصلت لبابه	سلم على ذاك النبي وصحبه

وحرمة رحمه – ﷺ- هي الحقوق التي تجب لهم علينا، كمودتهم وصلتهم وحبهم أكثر من أهل بيوتنا واحترامهم وتوقيرهم والاعتراف بفضلهم، وأن الله تعالى قد اختارهم أهل بيت وقرابة لنبيه – ﷺ-:

قال سبط رسول الله – ﷺ- أبو محمد سيدنا الحسن بن سيدنا على رضي الله عنهما: (أن الله تعالى لم يبعث نبياً حتى يختار له رهطاً وأصحاباً وأهل بيت، وقد اخترانا الله تعالى أهل بيته لنبيه – صلى الله عليه وآله وسلم-).

فمنهم من تشرف به – ﷺ- شرف نسب كالعترة الطاهرة النبوية وهي – ﷺ- ، أو شرف انتساب وهن زوجاته – ﷺ- أمهات المؤمنين رضي الله عنهن، أو شرف قرابة كالأعمال والعمات، ويكفيك قول الله تعالى: (قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى)(الشورى: من الآية 23) وقوله تعالى: (إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً)(الأحزاب: من الآية 33) وقوله تعالى (رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ)(هود: من الآية73).

وقد وردت أحاديث كثيرة في فضل أهل بيت النبوة رضي الله عنهم، ومن أعظم الصلة لهم زيارتهم بعد مماتهم والتسليم عليهم، والترضي عنهم.

الحديث السادس والعشرون

عن أنس رضي الله عنه قال: « قال أبو بكر لعمر رضي الله عنهما بعد وفاة رسول الله – ﷺ - : انطلق بنا إلى أم أيمن نزورها كما كان رسول الله – ﷺ - يزورها، فلما انتهينا إليه بكت، فقالا لها: ما يبكيك؟ ما عند الله خير لرسول الله – ﷺ - قالت: ما أبكي أن لا أكون أعلم ما عند الله خيراً لرسوله، ولكني أبكي أن الوحي انقطع من السماء فهيجتنا على البكاء فجعلا يبكيان معها» [رواه مسلم وأخرجه العامري في كتاب بهجة المحافل].

قال النووي رحمه الله: في هذا الحديث فضيلة زيارة الصالحين، وزيارة الفاضل للمفضول، والتأسي برسول الله – ﷺ – وزيارة الرجل للمرأة الصالحة وسماع كلامها، واستصحاب نحو العالم صاحباً له في الزيارة والعابدة ونحوهما، والبكاء حزناً عند فراق الصالحين والأحباب وإن كانوا قد انتقلوا إلى أفضل مما كانوا عليه، والبكاء من غير صوت.

الحديث السابع والعشرون

عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أن النبي – ﷺ - قال:

«ليس منا من لم يبجل كبيرنا ويرحم صغيرنا، ويعرف لعالمنا حقه». [رواه أحمد بن حنبل والحاكم، وكذا رواه سيدى أحمد بن إدريس في روح السنة].

تبجيل الكبير: احترامه وتوقيره لكبر سنه، وذلك من عادة الأشراف والعرب إلى يومنا هذا.

ورحمة الصغير: الشفقة والعطف عليه لضعفه وصغر سنه وعقله.

ويعرف للعالم حقه من الإرث المحمدي، قال عليه الصلاة والسلام «العلماء ورثة الأنبياء».

وحق الأفضلية، قال عليه الصلاة والسلام، «فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم» [رواه الترمذي عن أبي أمامة]. فمعرفة حق العالم واجبة على كل مسلم، ويجب احترامه لأجل الخلافة، قال عليه الصلاة والسلام: «رحم الله خلفائي، قالوا: ومن خلفاؤك يا رسول الله؟ قال: الذين يأتون من بعدى يبلغون الناس سنتي» والأمة بخير ما دام العلماء فيها، والأمة بخير ما وقرت علماءها واستمعت لأقوالهم وعملت بها، قال البوصري رحمه الله:

لم نخف بعدك الضلال وفينا وارثو نور هديك العلماء

الحديث الثامن والعشرون

عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله – ﷺ - «إن الله – تعالى – يقول يوم القيامة: يا ابن آدم: مرضت فلم تعدني . قال: يارب كيف أعودك وأنت رب العالمين؟ قال: أما علمت أن عبدى فلاناً مرض فلم تعده، أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده، يا ابن آدم استطعمتك فلم تطعمني. قال: يارب كيف أطعمك وأنت رب العالمين؟ قال: أما علمت أنه استطعمك عبدى فلان فلم تطعمه، أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندى، يا ابن آدم: استسقيتك فلم تسقني. قال: يارب كيف أسقيك وأنت رب العالمين؟ قال: استسقاك عبدى فلان فلم تسقه، أما إنك لو سقيته وجدت ذلك عدى) رواه مسلم.

قال الشريف ابن إدريس: (من كان للخلق جنة ورحمة وظلاً ظليلاً يستريحون فيه كان الله له كذلك، فمن أكرم عبداً مراعاة لسيده فإنما أكر السيد...).

وقال رضي الله عنه: (فسر سبحانه نفسه في قوله: جعت، ومرضت، واستسقيت بقوله: جاع عبدى فلان، فمعاملة العبد لملاحظة سيده هي معاملة السيد بلا شك).

قلت: إذا علمت أن ربك عند غيرك موجود فهل أيقنت أنه معك، وهل راعيت تلك المعية في

معاملتك لنفسه فرحمت جوعها إذا جهلت فأطعمتها علما؟ أو إذا مرضت بالذنوب والغفلة فعالجتها بالتوبة والاستغفار؟ أو عطشت بحب الدنيا فأرويت ظمأها بتزهيدها فيها؟
وإذا علمت أن معك العليم، وهو يحب العلماء ويكره الجهلاء فسارع إلى مجالس العلماء لتحظي بالعلم الموصل إلى حب الله تعالى لك، وفي الحديث «أوحي الله تعالى إلى سيدنا إبراهيم عليه السلام: يا إبراهيم ... إني عليم أحب كل عليم» وقلت بفضل ربي:

سارع إلى أهل العلوم فإنهم أهل الغذاء بهم ضياء الأنفس
إن قدم الغير النفيس فإنهم قد قدموا شهد الشفاء الأنفس

وسارع إلى التوبة الصادقة الموصلة إلى محبة الله تعالى لك، قال تعالى: (إن الله يحب التوابين) (البقرة: 222) فيا حبذا التوبة الموصلة إلى المحبة، فمن تاب فقد أناب، ومن أناب فقد آب، ومن آب فقد طرق الباب، ومن طرق الباب يوشك أن يفتح له الباب، ومن فتح له الباب شاهد أولى الألباب وقد رفع عنهم الحجاب، وقلت بفضل ربي:

تب إن أردت محبة الغفار فالله يغفر سائر الأوزار
ما خاب من قصد المهيمن تائباً ينجو بتوبته من الأغيار
لا يستقيم القلب في أعماله حتى يتوب لواحد قهار

وحب الدنيا ظمأ ووله وقلق، فاذهب ظمأ روحك بزهدها في الفانية ورغبتها في الباقية، فإذا رغبت زهدت، وإذا زهدت وجدت، وإذا وجدت جدت، وإذا جدت عدت، وإذا عدت وصلت، وإذا وصلت اتصلت.

الحديث التاسع والعشرون

عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي – ﷺ- أنه قال: «دخلت امرأة النار في هرة ربطتها فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض» [أخرجه الإمام أحمد والشيخان وابن ماجة، كلهم عن أبي هريرة، والبخاري عن ابن عمر].
«دخلت امرأة.. » قال في الفتح [أي: ابن حجر العسقلاني في فتح الباري شرح صحيح البخاري]: لم أقف على اسمها، وفي رواية أنها حميرية، وفي رواية أنها من بني إسرائيل، ولا تضاد بينهما؛ لأن طائفة من حمير دخلوا في اليهودية فنسبت إلى دينها تارة وإلى قبيلتها أخرى.
قوله: «في هرة» أي بسبب هرة، فالفاء بمعني باء السببية، والهرة: أنثى السنور، وجمعها هرر كقربة وقرب.
قوله: «ربطتها» أي: بحبل أو نحوه، وفي باب فضل سقي الماء من كتاب الشرب للبخاري: «حبستها حتى ماتت جوعاً» .
قوله: «فلم تطعمها» الفاء تفصيل وتفسر للربط، «ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض» أي:/ لم تتركها، وخشاش الأرض: حشراتها، قال في المصباح: خشاش الأرض وزان كلام، والكسر لغة: دوابها، الواحدة خشاشة، وهي الحشرة والهامة. أ هـ.
والهامة بتشديد الميم المفتوحة، وفي الحديث: «أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة، ومن كل عين لامة» [الحديث أخرجه أبو داود والترمذي والإمام أحمد]. وأما بدون تشديد فهي الرأس، وفي الحديث: «عظيم الهامة» [الحديث أخرجه الترمذي في جامعه عن هندي بن أبي هالة]. أي الرأس .
قال القسطلاني: وهذا مما استدركته السيدة عائشة على أبي هريرة رضي الله عنهما، وقالت له: أتدري ما كانت المرأة؟ إن المرأة مع ما فعلت كانت كافرة، إن المؤمن أكر على الله من أن يعذبه في

هرة، فإذا حدثت رسول الله – ﷺ- فانظر كيف تحدث.
قلت: وفي هذا الكلام بحوث:
الأول: أنه يخالف رواية الفتح من أنها كانت يهودية، واليهود في الزمن السابق لا يسمون كفاراً، والجواب: يحتمل أنها كانت حميرية باقية على كفرها وشركها، أو أنها دخلت اليهودية صورة ولم تتخل عن كفرها، وبهذا يجمع بين كونها كافرة ويهودية.
الثاني: اتفق العلماء على أن فاعل الكبيرة إذا مات ولم يتب فأمره مفوض لربه.
قال اللقاني رحمه الله:
ومن يمت ولم يتب من ذنبـــه فأمره مفوض لربـــه
وأما إذا تاب فاتفق العلماء على أن الله يقبل توبته، ويغفر له ما قد سلف ولو كان كافراً.

الحديث الثلاثون

عن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها قالت: قال رسول الله صلى عليه وآله وسلم: «ما بين منبري وبيت عائشة روضة من رياض الجنة ومنبري على حوضي» [أخرجه البخاري].

قال الشيخ ابن أبي حمزة رحمه الله: إنما جعل الله هذه البقعة روضة من رياض الجنة لأنها ممشاة – صلى الله عليه وآله وسلم –.

قلت: وقد أكرم الله تعالى نبيه ﷺ وما ينسب إليه، وجعل المسجد الذي بناه – ﷺ – الصلاة فيه بألف صلاة لنسبته للنبي ﷺ لا للمقدار، أي: لا للوسع الذي بناه ﷺ، فكلما اتسع المسجد وكان منسوباً له صلى الله عليه وآله وسلم كان فيه هذا الثواب إلى يوم القيامة، قال ﷺ: (مسجدي مسجدي ولو إلى صنعاء) أو كما قال.

ومعناه: الصلاة فيه بألف صلاة ما دام ينسب إليّ ولو وسعتموه إلى صنعاء اليمن.

وجعل الله البلد الذي اختاره لإقامته ﷺ حرماً، فقال ﷺ: (حرمت من المدينة ما حرم إبراهيم من مكة ما بين لابتيها حرام) واللابتان تثنية لابة: جبلان أسودان يحيطان بالمدينة ما بينهما حرم لا يُعضض شجرة، ولا ينفر صيده، ولا يختلي خلاه، كل ذلك إكراماً واحترامً له – ﷺ -، غير أن صيد مكة فيه الحرمة والجزاء، وصيد المدينة فيه الحرمة ولا جزاء فيه.

ونصلي في المحراب الذي كان يصلي فيه ﷺ كما ﷺ - ﷺ – في المكان الذي جلس فيه سيدنا موسى بن عمران عليه السلام، وعند مقام إبراهيم عليه السلام، فنبينا عليه الصلاة والسلام أولى من جميع الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام باحترام آثاره وبالصلاة عندها وبالدعاء.

الحديث الحادي والثلاثون

عن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله – ﷺ – قال:
«رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل عليّ» أخرجه السيوطي.
«ورجل ذكرت عنده فلم يصل عليّ فأبعده الله قل آمين: فقلت: آمين.» [أخرجه المنذري]
من فضل الله على نبيه - ﷺ – أنه جعل الصلاة عليه واجبة كلما ذكر اسمه حياً وميتاً، وهذا الفضل لم يجعله الله تعالى لمخلوق إلا له صلىالله عليه وآله وسلم، وأن من يصلى عليه - ﷺ – مرة يصلي الله عليه بها عشراً، وأن الصلاة عليه ﷺ عتق من النار سواء كان ذلك في حياته أم بعد مماته. قال ﷺ: (من صلى عليّ مرة صلى الله عليه بها عشراً، ومن صلى عليّ عشراً صلى الله عليه بها مائة، ومن صلى عليّ مائة صلى الله عليه بها ألفاً، ومن صلى عليّ ألفاً حرم الله شعره وبشره على النار) ومعنى بشره: جلده.

الحديث الثاني والثلاثون

قال – ﷺ -: «نحن معاشر الأنبياء تنام أعيننا وقلوبنا لا تنام»[رواه البخاري].
اعلم أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قد خالفوا الخلق في الموت الأصغر، وأيضاً خالفوهم في الموت الأكبر، قال عليه الصلاة والسلام: (الأنبياء أحياء في قبورهم يصلون) [أخرجه الحافظ البيهقي].
فيا من تريد أن تسوي بين الأنبياء وغيرهم في الموت. أين أنت من هذا الحديث؟ أما سمعت قول الله تعالى في الشهداء: (أحياء عند ربهم يرزقون) (آل عمران: 169) والأنبياء عليهم الصلاة والسلام أفضل من الشهداء، ولذلك قال الشيخ تقي الدين السبكي الشافعي مؤلف جمع الجوامع والحافظ السيوطي رحمهما الله تعالى وغيرهما من العلماء: تؤخذ حياة النبي – ﷺ - بعد الموت من آية الشهداء بالأولوية.
قلت: وقد ورد النص في السنة المحمدية أيضاً.

الحديث الثالث والثلاثون

عن أبي هريرة رضى الله عنه أن النبي – ﷺ – قال: «من رآني في النوم فسيراني في اليقظة» [رواه البخاري ومسلم وأبو داود].

اختلف شراح البخاري في معنى الحديث ... قال فريق يراه في الدنيا، وقال فريق آخر: يراه في الآخرة، ورد عليهم الفريق الثاني بأن رؤيته – ﷺ – للمؤمنين يوم القيامة ليست متوقفة على رؤيته في الدنيا في النوم.

ثم قال جماعة: يلزم على رؤيته في الدنيا في اليقظة انتقاله من قبره الشريف وتعدده.

وأجاب العلماء بأن الثابت أنه ﷺ في روضته كالشمس في السماء ترى لكل إنسان وفي كل بلد ولم تنقل ولم تتعدد، وهذا الذي ارتضاه السيوطي، وألف فيه رسالة سماها: (تنوير الملك في جواز رؤية النبي ﷺ والملك).

وصدرها بهذا الحديث السابق.

وممن أثبت ذلك وأقره شيخنا وأستاذنا الشيخ السيد أحمد بن إدريس رضى الله عنه، وقد أخبر بأنه تلقى جميع أوراده عن النبي ﷺ يقظة، ووافقه في ذلك تلميذه عالم المغرب السيد محمد بن علي السنوسي رضى الله عنه، وذكر ذلك في كتبه.

الحديث الرابع والثلاثون

عن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:
«إن لله ملائكة سياحين في الأرض فضلاً عن كتاب الناس يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر، فإذا وجدوا قوماً يذكرون الله تعالى تنادوا: هلموا إلى حاجتكم فيحفونهم إلى السماء الدنيا فيسألهم ربهم – وهو أعلم بهم – ما يقول عبادي؟ فيقولون: يسبحونك ويكبرونك ويحمدونك ويمجدونك. فيقول: هل رأوها؟ فيقولون: لا والله يا رب ما رأوها. فيقول: كيف لو رأوها؟ فيقولون: لو أنهم رأوها كانوا أشد عليها حرصاً، وأشد لها طلباً، وأعظم فيها رغبة، قال فمما يتعوذون؟ فيقولون: من النار. فيقول: هل رأوها؟ فيقولون: لا والله يا رب ما رأوها. فيقول: كيف لو رأوها؟ فيقولون: لو رأوها كانوا أشد منها فراراً وأشد لها مخافة. فيقول: فأشهدكم أني قد غفرت لهم. فيقول ملك منهم: فيهم فلان ليس منهم إنما جاء لحاجة. فيقول: هم القوم لا يشقى بهم جليسهم».
هذا الحديث الذي أخرجه البخاري رحمه الله في صحيحه، ونقله شيخنا رضى الله عنه في روح السنة، أعظم دليل على خلق الذكر، وأن يذكر الناس ربهم جماعة، ويدل على فضل الذكر، ويدل على فضل مجالسة الذاكرين لمن جالسهم ولو لم يكن منهم، وفيه دليل على أن من زار قبر نبي أو قبر أحد من أهل بيت النبوة أو قبر صحابي أو ولي لله تعالى وجلس بجواره ولو شيئاً قليلاً يدخل في هذا الحديث (هم القوم لا يشقى بهم جليسهم).

الحديث الخامس والثلاثون

عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن النبي ﷺ قال:
«إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا، قالوا وما رياض الجنة يا رسول الله قال: حلق الذكر».
رواه أحمد بن حنبل والترمذي والبيهقي في شعب الإيمان.
هذا الحديث أول ما سمعته عن شيخي العارف بالله تعالى السيد محمد الشريف بن العارف بالله تعالى السيد عبد العالي بن العارف بالله تعالى سيدي ومولاي الشريف السيد أحمد بن إدريس رضى الله تعالى عنهم أجمعين.
قال السيد محمد الشريف رضى الله تعالى عنه: يؤخذ من هذا الحديث استحباب الاجتماع في حلق الذكر، وأن العارفين يتلذذون بذكر الله تعالى، كما يتلذذ أهل الجنة بنعيمها أ هـ.
يقول: أن الاجتماع في حلق الذكر سنة وليس بدعة كما يدعيه المدعون لورود (حلق الذكر) في الحديث، وقد فعل الصحابة رضى الله تعالى عنهم ذلك، وأقرهم النبي ﷺ كما في صحيح مسلم.
وأما تلذذهم بالذكر فلأسباب أولها: فناء ما سوى الله تعالى عن عين البصيرة حتى نفسه، ولذلك كان السيد كثيراً ما يقول وهو في الذكر: أفن نفسك يا ذاكر، ولقد ذكرت معه كثيراً والحمد لله، وفناء الأغيار يورث الأنوار، وهي بمنزلة الذوق اللساني للقلب.
الشيء الثاني: مشاهدة الحق سبحانه مشاهدة منزهة عن الكيفيات خارجة عن المعقولات حتى يظهر أثر المشاهدة للروح، وهو بمنزلة نعيم الجنة، ولا يفضله إلا الرؤية الإلهية كما قال صاحب بدء الأمالي – رحمه الله – في وصف أهل الجنة عند رؤية الحق سبحانه:

فينسون النعيم إذا رأوه فيا خسران أهل الاعتزال

والمعنى: ينسون نعيم الجنة لنعيم الرؤية الإلهية، كذلك العارفون في الدنيا ينسون نعيم الدنيا لما يجدونه في قلوبهم وأرواحهم من التلذذ بمشاهدة الحق سبحانه وتعالى، كما قال سيدي عبد الله المحجوب الميرغني رضى الله تعالى عنه.

وشاهد الذكر مع المذكور وغب عن الجنان والقصور

وكلام السيد محمد الشريف رضى الله تعالى عنه يفيد أن التلذذ بالذكر شيء عظيم.
اسمع يا أخانا ثم انصت بقلبك إلى كلامنا هذا: إن العارف بالله إذا ذكر الله تعالى تلذذت روحه وجسده وشعره، وهو يشعر بذلك، وهو في هذه الحالة لا تحرقه النار؛ لأنه في حضرة اتصال تقلب له جميع المضار نفعاً.

الحديث السادس والثلاثون

قال رسول الله ﷺ: «لكل شيء صقالة، وإن صقالة القلوب ذكر الله، وما من شيء أنجى من عذاب الله من ذكر الله ولو أن تضرب بسيفك حتى ينقطع».
رواه سيدي أحمد بن إدريس في روح السنة
هذا الحديث يدل على أن الذكر يجلو القلوب، وأنها بتركه تصدأ كما يصدأ الحديد كما في حديث آخر: (إن القلوب لتصدأ كما يصدأ الحديد وجلاؤها ذكر الله).
الشيء الثاني: أن ذكر الله أمان من عذاب الله.
الثالث : أنه له فضل عند الله عظيم، وإذا كان العبد يذكر ربه ويجاهد في سبيله فقد جمع بين الفضيلتين فضيلة الذكر وفضيلة الجهاد، وكذلك الذي يذكر ربه ويجاهد نفسه وهواه.

الحديث السابع والثلاثون

عن أنس رضى الله عنه أن النبي ﷺ قال:
«إن الشيطان واضع خطمه على قلب ابن آدم فإن ذكر الله خنس، وإن نسى التقم قلبه».
رواه ابن أبي الدنيا وأبو يعلى في مسنده والبيهقي في شعب الإيمان
هذا الحديث يخبرنا فيه النبي ﷺ عن كيفية وسوسة الشيطان لقلب الإنسان، وذلك أنه يأتي من جهة اليسار، ويمد خطمه أي خرطومه إلى القلب، فإن وجده مشغولاً في ذكر الله تعالى خنس، أي رجع وهرب، وإن وجده غافلاً التقمه، أي استلمه وضار يوسوس لصاحبه بما يغضب الله تعالى، وفي بعض الروايات:
(وصار يمني له الأماني) أي: يوسوس له بالتمنيات البعيدة من زخارف الدنيا وزينتها وحطامها حتى يشغله عن ذكر الله تعالى، ويملي عليه الظنون والأوهام الكاذبة، قال تعالى: (يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا) (النساء: 120) أعاذنا الله وإياكم من وساوس الشيطان الرجيم.
سأل بعض الصالحين ربه تعالى أن يريه في منامه كيف يوسوس الشيطان في قلب المؤمن فرأى زجاجة مملوءة بالماء، والضفدع يأتي إليها، فإذا دنا منها اهتزت فيرجع الضفدع هارباً، وقيل له: هذه الزجاجة مثل القلب، واهتزازها مثل ذكر الله تعالى، وهذا الضفدع هو مثل الشيطان.
واعلم يا أخانا في الله تعالى أن الخاطر الذي يخطر بقلبك طالباً منك فعلاً أو قولاً فاعرضه على الكتاب والسنة فإن قبلاه فاعلم أنه من الملك فسارع في إنفاذه وإن لم يقبلاه ففر منه فرارك من السبع واعلم أنه من الشيطان.
وقد يوسوس الشيطان للإنسان بأشياء لو نطق بها فكر، فإذا وصل إلى ذلك فليعلم أنه وصل إلى كمال الإيمان، ولا يجادل الشيطان فإن المجادلة تزيده تمكيناً كما نقل ذلك عن سيدي أحمد زروق رضى الله عنه، ونظمه الناظم بقوله الذي سمعته عن شيخي المحدث الشيخ حبيب الله الشنقيطي رحمه الله تعالى – بالمسجد الحسيني:

وما به يوسوس الشيطـان والقلب يأبها هو الإيمـان
فلا تجادل عنده اللعينـا فإنه يزيده تمكينـا
قاعـدة أسسهـا زروق ولم تزل أقواله تـروق

الحديث الثامن والثلاثون

عن أبي بكر رضى الله عنه أن النبي ﷺ قال:

«عليكم بلا إله إلا الله والاستغفار فأكثروا منهما، فإن إبليس قال: أهلكت الناس بالذنوب، وأهلكوني بلا إله إلا الله والاستغفار، فلما رأيت ذلك أهلكتهم بالهوى ويحسبون أنهم مهتدون».
أخرجه أبو يعلي في مسنده ورواه سيدي أحمد بن إدريس في روح السنة.
في هذا الحديث أمر من النبي ﷺ بالإكثار من ذكر (لا إله إلا الله) والاستغفار؛ لأن ذكر (لا إله إلا الله) يدعو النفس إلى التوبة والندم، والتوبة تدعو النفس إلى الاستغفار، والاستغفار يغفر الله به الخطايا.
وأما الهوى فهو كما قال الله تعالى: (أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا) (فاطر: 8). فهو عبارة عن فعل المعصية في صورة طاعة، فإذا فرغ منها صاحبها لا يندم ولا يتوب فلذلك يحرم المغفرة، أو يتكلم مع الله تعالى بعد فعل المعصية بكلام لا يليق كأن يحتج بالقضاء والقدر على الله تعالى.
وقد تكلم ابن عباد الشافعي في شرح حكم أحمد بن عطاء الله السكندري المالكي في هذه المسألة بكلام لطيف ثم ذكر حديثاً، قال عليه الصلاة والسلام: (إذا أذنب العبد ذنباً وقال: يا رب أخطأت وأذنبت. يقول الله تعالى: غفرت ورحمت. وإذا قال: قدرت وأردت. يقول الله تعالى: لا غفرت ولا رحمت).
وقال سيدي علي أبي الحسن الشاذلي – رضى الله عنه – في توبة آدم عليه السلام: ليكون قدوة لولده في التوبة والأعمال الصالحات. ومعنى هذا الكلام أن سيدنا آدم عليه السلام لما أكل من الشجرة نسب الخطأ إلى نفسه وقال: (بنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) (الأعراف: 23) كذلك المؤمنون إذا فعل منهم إنسان خطأ يخاطب الله تعالى بخطاب أبيه آدم يقول: (رب إني ظلمت نفسي) ولا يحتج بالقضاء والقدر ومن دعائه ﷺ: (لبيك اللهم لبيك وسعديك والخير كله بيديك والشر ليس إليك).

الحديث التاسع والثلاثون

عن أبي ذر الغفاري رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ :
«اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن»
رواه الترمذي
يأمرنا ﷺ بتقوى الله عز وجل في معاملاتنا الثلاث وهي: معاملة الله عز وجل، ومعاملة النفس، ومعاملة الناس؛ لأن من أحسن هذه المعاملات عاش آمنا وبعث يوم القيامة آمنا، وأدخله الله الجنة مع المتقين الآمنين.
فأما معاملته تعالى فهي التقوى في السر العلانية، وهي وصيته سبحانه لنا وللذين من قبلنا (ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله) (النساء: 131) وهي كما قال سيدنا علي كرم الله وجهه: (الخوف من الجليل، والعمل بالتنزيل، والرضا بالقليل، والاستعداد ليوم الرحيل) لأن الخوف من الله تعالى يرغب النفس وينشطها على فعل الحسنات والصالحات ويمنعها من ارتكاب النقائص والمخالفات، فمن عرف الله خافه، ومن خافه اتقاه، ومن اتقاه امتثل أمره واجتنب نهيه (ذلك الله به عباده يا عباد فاتقون) (الزمر: 16).
والعمل بالتنزيل هو العمل بكتاب الله عز وجل فيما أمر ونهى لأنه الصراط المستقيم من سلكه وصل إلى رضوان الله، ومن أعرض عنه كان من الهالكين (كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب) (ص: 29).
والرضا بالقليل هو التسليم لقضاء الله ومقاديره والشكر له على جميع الحالات؛ لأنه يعلم ولا نعلم وهو علام الغيوب، فكم من مال كثير أشقى صاحبه، وكم من قليل أسعد!
(وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم، والله يعلم وأنتم لا تعلمون) (البقرة: 216).
والاستعداد ليوم الرحيل هو التأهب للموت الذي يأتي في غير ميعاد معلوم، بل يأتي بغتة بأمر الله الحي

القيوم، فكم من صحيح أصبح معه الأحياء وأمسى مع الأموات، كان مع أولاده وأحبابه فأمسى رهيناً بقبره وترابه، فالعاقل من أعد العدة للقاء من أمره بين الكاف والنون.
ومعاملة النفس هي السعي في أمر إصلاحها وفلاحها وأدبها وتزكيتها وتوبتها إلى الله عز وجل وفعل الحسنات بعد السيئات ليكفر الله عنها ما سبق ويكتبها مع التائبين. (إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين) (هود: 114) لأن من أهمل نفسه فقد أضاعها وضياعها جرم عظيم، فالفلاح لمن هذب نفسه بالشرع الحنيف، والخيبة على من أهملها (قد أفلح من زكاها * وقد خاب من دساها) (الشمس: 9، 10).
ومعاملة الناس: بحسن الخلق، وهو أن تصل من قطعك وتعطي من حرمك وتعفو عمن ظلمك وتحلم على الجاهلين؛ لأن الحلم ماء والغضب نار، وصاحب الماء يغلب صاحب النار، وإياكم والغضب فإنه بئس القرين، فبه يؤذي الإنسان جيرانه وبه يطلق الرجل زوجته، ويسب الشرع والدين، وبه تسفك الدماء، وتسب الآباء والأمهات وما من فتنة إلا ومنشؤها الغضب، فهو سكين التقاطع، وعنوان الشر، وناعق الخراب، وشؤم الإنسانية، وشرر المجتمع، وحالقة الإخاء، وخمرة العقول، وأزمة الحكمة ومضلة الفطنة، ونار العداوة، وظلمة الجهل، فمن أراد أن يعيش سعيداً فليصحب الحلم، وليحذر الغضب، وليتخلق بأخلاق أحلم العالمين ﷺ.

الحديث الأربعون

عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال:
«لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام والمسجد الأقصى ومسجدي هذا».
أخرجه البخاري ومسلم
يريد النبي ﷺ أن يبين فضل المساجد الثلاثة، وأن يبين أن باقي المساجد متساوية في الفضل، فلا يجوز لأحد أن ينتقل من مسجد إلى مسدد آخر معتقداً أ، الصلاة في المسجد الآخر أفضل من المسجد الذي انتقل منه، فالمساجد متساوية في حصول الثواب بالعبادة فيها إلا المسجد الحرام فالصلاة فيه بمائة ألف صلاة، وفي مسجد النبي ﷺ الصلاة بألف صلاة، وفي المسجد الأقصى – أخرج الله منه اليهود قريباً إن شاء الله – بخمسمائة صلاة. (الحديث: «صلاة في المسجد الحرام مائة ألف صلاة، وصلاة في مسجدي ألف صلاة، وفي بيت المقدس خمسمائة صلاة» أخرجه البيقهي في الشعب، ورواه البخاري ومالك وغيرهما).

معنى الحديث: لا ينتقل أحد من مسجد من المساجد إلى مسجد آخر معتقداً أن الصلاة في الثاني أفضل من الأول إلا للثلاثة مساجد لفضلها.
فالمستثنى منه عموم المساجد، والمستثنى المساجد الثلاثة، وأراد - ﷺ – في هذا الحديث أن العبادة في جميع المساجد متساوية في الثواب، فلا ينبغي لأحد أن يفضل مسجداً على مسجد آخر تفضيلاً يبيح له الانتقال إلا إلى المساجد الثلاثة، فأفضلية العبادة فيها عن غيرها تبيح لنا أن ننتقل من غيرها إليها، وهذا الأفضلية توقيفية عن النبي ﷺ.
وأخذ الفقهاء من هذا الحديث أن الإنسان لو نذر أن يصلي ركعتين لله في الجامع الأزهر جاز له أن يصليهما في أي مسجد كان، أما إذا نذر أن يصلي ركعتين في واحد من المساجد الثلاثة فلابد أن يهاجر إلى المساجد الثلاثة.
وكثير من الناس إذا قلت له: أريد أن أزور النبي ﷺ يقول: قال عليه الصلاة والسلام: «لا تشد الرحال ...»
وإذا قلت: أريد أن أزور ولياً من أولياء الله تعالى يقول لك «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد ...»
الحديث لا يتناول هذا المعنى الذي قاله هذا الإنسان؛ لأن الحديث يتكلم عن المساجد لا عن زيارة المقابر.
وقوله: «لا تشد الرحال...» خرج مخرج الغالب إذ الانتقال يعم شد الرحال وغيرها، هذا الذي ألهمنيه ربي سبحانه وتعالى، وبعد الاطلاع على شراح الحديث وجدت القول الصحيح هو الذي ذكرته هنا، وإليك قول أمير المؤمنين الحافظ ابن حجر العسقلاني رحمه الله في الحديث: (والأولى أنه يقدر ما هو أكثر مناسبة وهو: لا تشد الرحال إلى مسجد للصلاة فيه إلا إلى الثلاثة، فيبطل بذلك قول من منع شد الرحال إلى زيارة القبر الشريف وغيره من قبور الصالحين).
قال ابن حجر رحمه الله: (وهي من أبشع المسائل المنقولة عن ابن تيمية) يعني تحريم شد الرحال إلى زيارة قبر النبي ﷺ .
فائدة :
الشيء الذي يوصل إلى الواجب يكون واجباً كدفع المبلغ الذي تأخذه شركة الحج إذا توقف الحج عليه يكون دفعه واجباً، وكذلك دفع المال الذي تتوقف عليه العمرة على القول بأنها سنة إذا كانت توقفت العمرة عليه يكون دفعه سنة، بمعنى أنه يثاب ثواب السنة على المال المدفوع للعمرة، وقد ثبت بالسنة القولية والفعلية استحباب زيارة قبور المسلمين، أما القولية فقوله ﷺ: «ألا فزوروها» (بعض حديث رواه البخاري ومسلم عن أنس). وأما الفعلية فزيارته ﷺ لقبور أهل البقيع.
فإذا ثبت أن زيارة القبور سنة فالذي يوصل إليها يكون سنة، فإذا مشيت مشياً إلى المقبرة كما مشي النبي صلى الله عيه وآله وسلم إلى البقيع كان مشيك سنة، بمعنى أنك تثاب عليه ثواب السنة، فإذا ركبت دابة إلى زيارة القرافة واستأجرتها بأجر كان دفعك لهذا الأجر سنة، بمعنى أنك تثاب عليه ثواب السنة، فلو أن رجلاً دعواه والداه إلى الحضور بالصعيد يكون ذهابه إلى الصعيد واجباً، فإذا أجر القطار أو أجر دابة وذهب إلى والديه بالصعيد يثاب على هذه الأجرة ثواب الواجب لأن طاعة الوالدين واجبة، حينئذ قول من يقول إن شد الرحال إلى زيارة القبور حرام ويستدل بالحديث: «لا تشد الرحال...» غير صحيح لأن الأمر عام، قال عليه الصلاة والسلام: «ألا فزوروها» يعني مشاة أو ركباناً فكنه يقول: شد الرحال حرام ويعترض على الزائرين. هذا من غير دليل.
كيف وقد قال الحافظ ابن حجر العسقلاني في حديث مسجد قباء عن ابن عمر كان رسول الله ﷺ يأتي قباء ماشياً وراكباً، قال الحافظ: فيه أن النهي عن شد الرحال لغير المساجد الثلاثة ليس على التحريم.